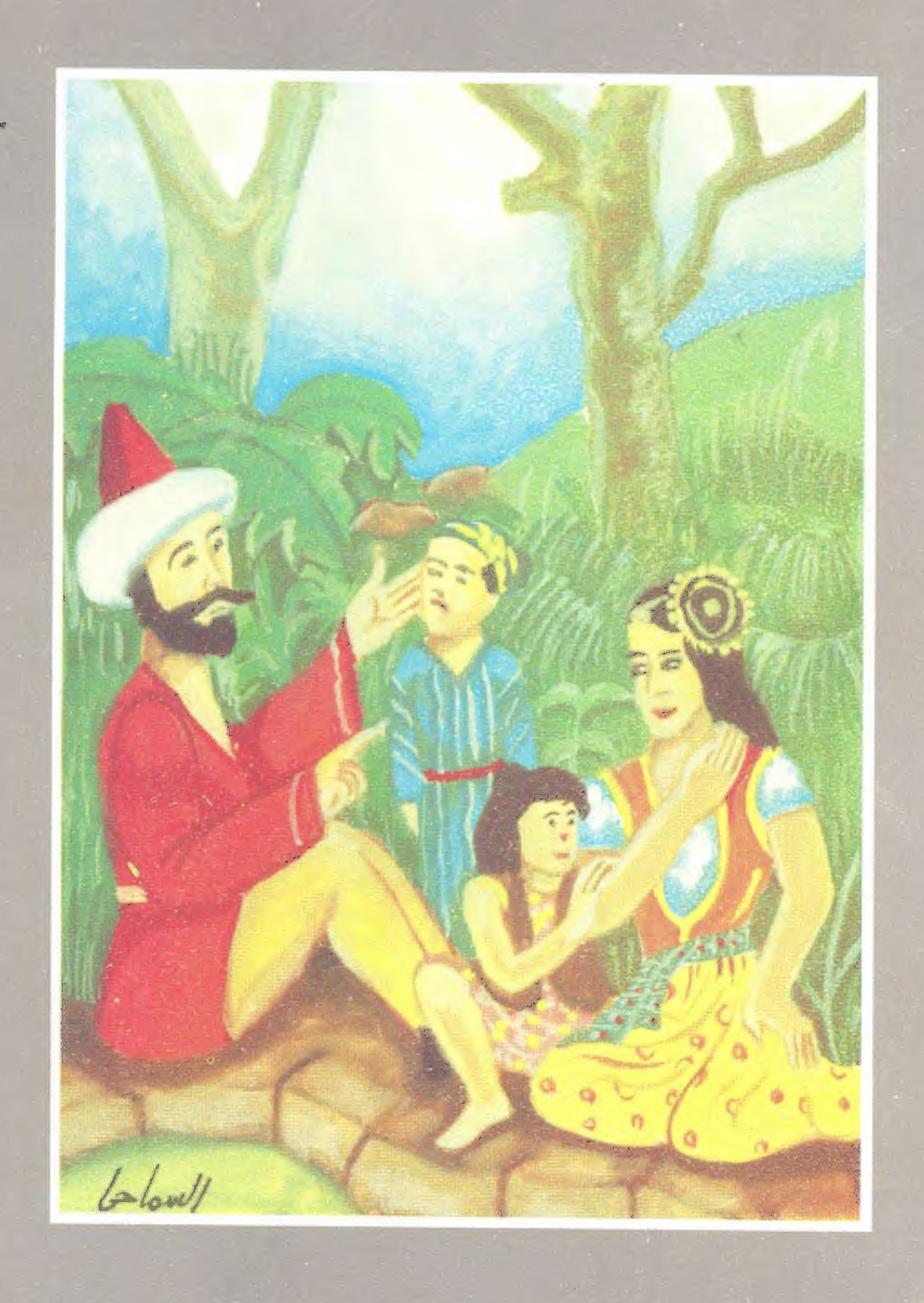
المجلس الأعلى للثقافة

الأسرة فى الأدب العربى



محمد عبد الواحد حجازى

الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية

المجلس الأعلى للثقافة

لجنة الدراسات الأدبية

الأسرة في الأدب العربي

تـأليـف

محمد عبد الواحد حجازي

الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية



١٩٩٧

الأسرة في الأدب العربي

الإشراف الفنى والغلاف : محمود القاضى

المقدمة

احترام الحياة وتقديرها

الأسرة قوام المجتمع لا ينكر ذلك أحد ولا يجحده ، فهى الخلية الأولى للجسد الاجتماعى إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا أنشب الفساد فيها أظفاره انهارت وتقوضت البناية الاجتماعية فى أثرها .. ويستقيم أمر الخلية الأولية فى البنية الاجتماعية بسلامة النظرة التى ينظر بها إليها وبصحة التقدير الذى تقدر به والمسبار الذى تختبر على أساسة . ولباب الأمر أنه لا تصلح اللبنة الأولى فى البناء الاجتماعى بغير الاحترام والتقدير لقوانين الحياة وموجبات الوجود إذ أن الاحترام للقوانين التزام بها والتقدير عمل بموجبها وبمقتضى ما تمليه دوراتها .. فحيثما وجدنا احتراما وتقديراً لقوانين الحياة لم يعز علينا أن نجد الأسرة فى المجتمع الإنسانى قوية الأساس متآلفة العناصر ولم يعز علينا كذلك أن نصادف المجتمع الذى تمثله هذه الوحدة الإنسانية نصادفه فى طوائفه وطبقاته بعاداتها وتقاليدها ومناحى ثقافاتها - تعلن كلها عن سلامة الجسد كله وعن مقدار تماسكه وصلابته ومقدرته على مجابهة الخطوب والإحن ..

إلا أن عبارة " احتراماً وتقديراً لقوانين الحياة " ، تبدو فى جملتها حكماًعاماً يستوجب التساؤل ويستأهل التفكير المتيقن من خطاه والذى لا يضل وراء سراب التعميمات والكليات ..

ما المراد بالاحترام ؟ ما المراد بالتقدير ؟ ما المقصود بقوانين الحياه ؟

هذه الكليات الثلاث إن أجيز لنا ذلك التعبير تحمل كل منها أمشاج مختلفات من العناصر والروافد ، فما يعد احتراماً فى عصر من الأعصر قد لا يعد كذلك فيما يليه بل وربما عُد معابة وعارا فى فترة من فترات ذلك العصر .. وما يعد تقديرا فى عصر لا يُعتبر كذلك فى آخر ، ولقد يختلف التقدير بين المقدرين وهم أبناء عصر واحد وطبقة واحدة ..

وما هى قوانين الحياة ؟ أهى شئ لا يمكن تحديده ؟ ألكل عصر قوانين كما أن لكل جيل أفانين ؟ فى رأيى أن لا فرق فى قوانين الحياة بين زمن وزمن ، وبين جيل وجيل . وما قد يتوهمه المتوهمون من وجود اختلافات إنما نشأ من النظر إلى ظواهر الأمور دون بواطنها ومن محاولة استخلاص الحقائق من السطوح دون العمائق .

للحياة قانون واحد لا ثانى له هو الحياة ومن شيمتها التطور صُعدا في مدارج الرقي ومن طبيعة التطور والتصاعد الحيوي نبذ مالا يتسق وعملية التطور فى أساسها وما لا يلتئم والحياة فى عنصرها الأصيل .. إذن فالمجتمع الذي تفوز فيه الحياة بالتقدير إنما هو مجتمع سليم البناء متماسك الأجزاء والأسرة أهم أجزائه .. والمجتمع الذى تقدس فيه الأسرة فتنال نصيبها من الاحترام والإجلال ، هو مجتمع جدير ببلوغ درجات عالية من الرقي والسؤدد وإن لم يكن قد بلغ من درجاتها إلا أقل حصة منها ..

احترام الأسرة إذن ، هو احترام لقوانين الحياة .. الحياة برحابتها واتساعها الحياة بواقعها المتجدد وإنسانها الذى لا ينضب ، وجدانه من الأمل ..

وعلى هذه السنة نقدم كتابنا " الأسرة فى الأدب العربى " .. ليبين كيف كان لهذه الأسرة دورها لا فى حياة الأمة العربية فحسب بل فى حياة

الأدب العربى كصورة حية وضاءة للحضارة العربية فى ماضيها وحاضرها . وبهذه الروح فإننا عمدنا إلى اتخاذ منهج له سماته المتميزة فى دراسة هذا الموضوع . وكمبدأ أولى أو مبدأ عام فإننا نسير فيه مع مسيرة الأسرة فى حياتها من لدن نشأتها الأولى ، أى عند التقاء الرجل والمرأة بالزواج إلى أن تغرب حياتها أو حياة أى من أفراد الأسرة . وما يتخلل ذلك من تغيرات وأحوال فى حياتهما ومعيشتها . ومن ثم فقد جاء منهجنا فى تأليف الكتاب على النحو التالى :

• الفصل الأول : الأسرة .

وقد تناولنا فيه تعريف الأسرة والنظريات التى قال بها علماء الاجتماع فيما يتعلق ببنائها واختلاف نظامها من حضارة إلى أخرى .

ثم تناولنا موقف الأسرة من أبنائها ومدى تأثر الطفل سلوكا ، وخلقا وشخصية بمن يتعاملون معه .

وقد شمل هذا الفصل نقطتين : ما هى الأسرة ؟

الطفل أبو الرجل

• الفصل الثانى : الأسرة فى الأدب العربى

وقد عالجناه على نسق يعطى كل صور الأسرة ومظاهر تكوينها معالجة اجتماعية وأدبية فى نفس الوقت بحيث تجسد أجناس الأدب . ومن ثم فإننا قسمنا هذا الفصل على النحو التالى :

أ - الزواج ، وقد تضمن الظواهر الاجتماعية الآتية :

* الاختيار * عقد القران * أفراح * ولد أم بنت ؟

ب - الطفولة ، وقد تضمن الظواهر الآتية :

* ملاعبة الأطفال * أدب الأطفال * التعليم والحكمة

جـ - الوالدان والأقربون ، وقد تضمن الظواهر الآتية :

* الأب * الأم * الأقربون

د - أزمات ، وقد تضمن الظواهر الآتية :

* عقوق الوالدين * الطلاق * غروب (الموت)

هـ - كلمات وفكاهات :

وقد تضمن بعض الفكاهات والنوادر المضحكة التى تقع من أحد الزوجين ، أو من الأبناء ، أو الأقارب .

وبعد . فهذا هو سبيلنا ومنهاجنا والله المستعان ،

محمد عبد الواحد حجازى .

الفصل الأول

الأســـــرة

.. ما هى الأسرة ؟

.. الطفل أبو الرجل

ما هى الأسرة ؟

ما هى الأسرة ؟ سؤال قد تبدو عليه السذاجة وربما لاحت على سامعه علائم الدهشة والاستغراب .. ما هى الأسرة ؟ الأسرة هى الزوج والزوجة والأبناء .. وذلك جواب المستنكر المستغرب ، وما بالسؤال من سذاجة وما بمطرحه من غرارة أو غفلة .. ذلك أن التطور الحضارى للمجتمع الإنسانى يفرض علينا أن نطرح ذلك السؤال لسبب يسير جدا ذلك أن الأسرة هى دعامة المجتمع والنبع الذى استقى منه التطور الحضارى ماء حياته ؛ هذا فضلا عن أن تحديد حدود الأسرة فيه تبيان لمعالمها وتوضيح لمياسمها ذات الدلالات المختلفة والمعانى المتشابكة وحتى لا تتبدد وسط ذلك الكائن الهائل المسمى بالمجتمع الإنسانى وذلك كله يهدينا صورة سمحة صادقة للمسار التاريخى للأسرة ..

ونبدأ بأن نقول أن قد كان للأسرة معانى مختلفة فى الحضارات المتعددة والمجتمعات المتباينة وكل معنى من المعانى كان المدار الفلكى الذى تدور فيه الأسرة وتكتسب ملامحها وميزاتها التى تنفرد بها . ففى[1] المجتمعات البدائية والتى لم تنل نصيبا مذكوراً من التطور الحضارى لم يكن يميز بين الأسرة والعشيرة فالأسرة هى القبيلة بكل رجالها ونسائها

١- كتاب الأسرة والمجتمع ، تأليف د / علي عبد الواحد وافي ، الناشر : مكتبة نهضة مصر ، الطبعة السادسة سنة ١٩٦٦ ص ٧و٨

يرتبطون برباط واحد ويجمعهم على القرابة سبب واحد هو التوتم Tiotem .. وهو عبارة عن نوع من الحيوان أو النبات تتخذه العشيرة رمزاً لها ولقباً لجميع أفرادها معتقدة أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية وتنزله وتنزل الأمور التى ترمز إليه منزلة التقديس . فلم تكن الأسرة إذن فى أمثال هذه المجتمعات تقوم على أساس من صلات الدم كما هو الحال فى أيامنا هذه إنما مناط الأسرة كلها يدور حول التوتم الذى يجمع الأفراد ويدمجهم فى قرابة واحدة ..

وفى الحضارة اليونانية الرومانية كان جميع الأقارب من جهة الذكور ينضوون تحت لواء الأسرة ويدخل معهم تحت ذلك اللواء : الرقيق والموالى والأدعياء . غير أنه ما كان يُقبل فى عضوية الأسرة من الذكور إلا من اعترف الأب والعشيرة ببنوته . فكانت القرابة فى الأسرة لا تقوم على صلات الدم إنما كانت تقوم على الادعاء فحسب . فقد كان الوالد فى الأسرة اليونانية إذا رزق من امرأته بولد عرض أمره على مجلس العشيرة فإن قبله المجلس صار الوليد من أبناء العشيرة وإن نبذه عُد خارجا عنها لا يمت إليها بسبب ..

وما كانت الأسرة الرومانية تخرج كثيراً عن ذلك التقليد .فإذا ولد لأحد الرومانيين ولد أتى به ووضعه على عتبة حجرة عميد العشيرة فإذا خرج العميد وضمه إلى صدره كان ذلك شارة الاعتراف ببنوته فيغدو عضواً من أعضاء الأسرة أو العشيرة ، غير أنه إذا أهمله ولم يلق بالاً إليه أصبح أجنبيا غير مأبوه لصلة الدم التى تربطه بوالديه .. وكان معنى الأسرة عند العبرانيين يشمل معنى العشيرة ولا يعترف فيها إلا بالقرابة من ناحية الذكور .. وعلى هذه الصورة كانت الأسرة العربية فى الجاهلية ..

ويتصل مفهوم الأسرة بمفهوم القرابة فدرجة القرابة تحدد على ضوء من معنى الأسرة . ودرجة القرابة هذه قد تفسح دائرة الأسرة وربما تضيقها ، فقد

كانت بعض الأسرات فى الماضى وفى بعض المجتمعات البدائية تقوم على النظام الأمى أى أن الأم هى قطب الرضى ومستمد القرابة فما كان الولد يرجع بقرابته إلى أبيه بل كان يرجع بها إلى أمه وأسرة أمه . غير أن هذا النظام لم يستقر طويلا وإن كان بعض العلماء قد جعلوا منه فجر النظم الأسرية . ومن الذين غلوا فى الأخذ بهذه النظرية العالم السويسرى باخونين وذلك فى كتابة " حقوق الأم " ، والعالم الأسترالى ماك لينان فى كتابه : " الزواج البدائى " ويقابل ذلك النظام فى الطرف الآخر نظام الأسرة الأبوية وهى التى يكون للأب فيها كل سلطة وسلطان وليس للأم ولا لقرابة الأم أى أعتبار أو اعتراف .. وبين هذين الطرفين : الأسرة الأموية ، والأسرة الأبوية توجد أربعة أنظمة للأسرة :

. فنظام ثالث يقوم على أساس من القرابة فى الأسرتين مع ترجيح أسرة الأب على أسرة الأم وذلك معمول به فى معظم الأمم الأسلامية ..

. نظام رابع يعتمد على الناحيتين فى القرابة مع ترجيح قرابة الأم على قرابة الأب ويعتبر العلماء هذا النظام مرحلة انتقال إلى النظام الأبوى ..

. نظام خامس لا يتفاضل فيه أى من القرابتين تفاضلاً كبيراً ، وعلى هذا النظام تنهج معظم الأمم الأوربية ..

. نظام سادس وتبدو عليه الغرابة لأنه لا يعتمد على قرابة الأب أو قرابة الأم فترجيح إحداهما على الأخرى يقوم على التوتم الذى يتبعه أهل عشيرة ما .. وذلك أنه إذا أحست الأم بحركة الجنين لأول مرة فى منطقة العشيرة التى تنتمى إلى هذا التوتم أصبح الوليد ابنا لتلك العشيرة . وقد أسمى العلماء هذا النوع من التواتم باسم التوتم المحلى أو التوتم الحملى ..

لكن ما السبب فى هذا التفضيل أو الترجيح ؟ وما العلة وراء اعتماد القرابة على محور أحد الزوجين دون الآخر ؟

إن الأمر يصدر عن عنصرى القوة والتحريم معا سواء رجعا إلى قوة القهر والمراغمة أو قوة التسلط الروحي والعقائدى على العقول والأفكار . فما وضعت قيود القرابة بقصد التقييد أو التحريم لذاته لكنها وضعت لإقامة نظام اجتماعى تواضعت عليه العشيرة أو القبيلة أو الأمة . لقد وضعت القيود لتفسح المجال من ناحية وتوسع دائرة القبيلة من ناحية أخرى . فكأنها بذلك كانت تجدد حياتها وتزيد فى بسطة جسدها الاجتماعى لا شعوريا ، إن صح هذا التعبير .. وأمامنا خمس نظريات ترتئى كل منها وجهة معينة وسببا معينا أدى بالقبيلة أو العشيرة إلى فرض أشراط للزواج وتحديد درجات القرابة بين أفرادها ..

. فالنظرية الأولى[1] وهى نظرية العالم ماك لينان ترى أن قيود القرابة قد نشأت بسبب ما طرأ على المجتمعات الإنسانية البدائية من نقص فى عدد النساء نشأ عن عادة قتلهن حتى لا يكلفن ذويهن رهقاً ويسببن لهم عسراً فى معيشتهم ..

. والنظرية الثانية[2] هى نظرية العالم الأمريكى مرجان ، ترى أن نظام القرابة بقيوده وتحريماته لم ينشأ تلقائيا وإنما المجتمع هو الذى قصد إلى ذلك قصداً وتعمد ذلك قادته ومفكروه وذوو السلطان فيه بعد أن رأوا ما جره نظام الشيوعية الجنسية على المجتمع من مفاسد وشرور وهو النظام الذى سارت عليه المجتمعات فى مراحلها الأولية . ومن الذين ذهبوا مذهب مرجان وعضدوا نظريته : سبنسر ، وجيلين ، وفريزر ..

النظرية الثالثة[3] ، وترى أن قادة الجماعات قد وضعوا قيوداً للقرابة وظاهروها بالسلطان ثم حملوا الناس عليها بعد أن تبين لهم أن الاقتصار على الزواج من دائرة الأقارب وعدم الخروج من مجال الأسرة يضعف البنية الجسدية للجيل التالى ويجعل أبناءه ضئال الأجسام غير قادرين على مطاولة الأقوياء ومصاولة النظراء ..

---

١ . ٢ . ٣ كتاب : الأسرة والمجتمع تأليف / د على عبد الواحد وافى ، صـ ٢٥ : ٣٠

النظرية الرابعة[١]وهى نظرية العالم الكبير وسترمارك ويقرر فيها أن قواعد تحريم التزاوج بين الأقرباء قد وضعت نتيجة لظاهرة الكراهية الجنسية أو التقزز الجنسى الذى يصيب الذين يعيشون فى بيت واحد حيث ينفرون من بعضهم البعض ولا يحسن مرأى أحدهم فى نظر الآخر .

النظرية الخامسة[٥]وقال بها العلامة دور كايم فهو يرى أن نظام التحريم الذى درجت عليه الأمم البدائية يرجع إلى النظام التوتمى الذى يفرض على تابعيه تقديس بعض الكائنات والأشياء من حيوان ونبات وصخور وعيون للماء وغيرها . فكل ما يحيط بالأسرة وتتناوله فى معاملاتها يحل فيه روح التوتم لذلك فهى تحيطه بهالة من التقديس وطقوس من التحليل والتحريم تسير كلها وفقا لنظام اللامساس " الذى يحرم على أفراد القبيلة الاقتراب أو المساس بشئ تحل فيه روح التوتم ما لم يتطهر وفقا لتعاليم الديانة التوتمية ، وما لم يقم بتلاوة الأدعية فى مواقيتها وحسب ما تمليه من تحوط واحتراز . ذلك لأنها كانت تعتقد أن التوتم لا ترى روحه فى الكائنات والأشياء فحسب بل كذلك فى دم الإنسان نفسه ، وبذلك نشأ تحريم التزاوج بين من يربطهم رباط توتمى واحد فهو الذى يسرى فى دمائهم أجمعين فيحرم من ثم أن تهراق قطرة من دم الأقرباء الذين ينتمون لتوتم واحد ..

يتبين لنا إذن من وجهة نظر علم الاجتماع أن الأسرة نظام اجتماعى تعاوره الكثير من عوامل التطور والتحور حتى اقتصر على الزوج والزوجة والأبناء . فهى من ثم جوهر البناء الاجتماعى وأساسه ..

---

١ . ٢ المرجع السابق صـ ٣٠

• الطفل أبو الرجل

" الطفل أبو الرجل " تلك حقيقة بلغها علم النفس بعد تفكر وتجريب حتى أصبحت حكمة يتمثل بها أو مفتاحاً يفتح به باب الشخصية التى يراد بحثها وفحصها ثم علاجها ..

والطفل ابن لرجل وامرأة يحمل كل منهما صفات وراثية وعناصر بيولوجية قد تلازمه منذ لحظة ولادته وقد لا تظهر إلا فى فترات متقاصية من حياته .. ولا جدال فى أن هناك فروقا جسدية بين الرجل والمرأة ومن بينها بناء الجسم وما يحتوى من هيكل عظمى وتكوين عضلى سواء فى ذلك العضلات الكبيرة أو الصغيرة .. ويختلف الرجل عن المرأة كذلك فى الوظائف الفسيولوجية وما ينبنى عليها من تكوينات كيميائية .

وسواء البناء الجسدى أو التفاعل الكيمائى لبعض الإفرازات فإنه يتردد تأثيرها فى سلوك الفرد . ويعزو بعض العلماء ما بين الجنسين من فروق سيكلوجية إلى هاتيك الإختلافات الجسدية . وقد جهد الكثيرون من العلماء فى إيضاح الفروق السيكلوجية التى تميز كل جنس من الجنسين فاتخذوا أنواعاً مختلفة من التجارب وسبلا متنوعة من التدليل . ومن أشهر معايير القياس معايير برونوميتر التى أوضحت أن الرجال أكثر صلابة ورسوخاً واعتماداً على أنفسهم وأقل تعرضا للعصاب .. وقد أبانت بحوث أخرى أن النساء يملن إلى الحياة الاجتماعية وأن الرجال أكثر ميلاً

إلى الحركة والمكابدة والاعتداء .. وأبانت بحوث ثالثة أن النساء أكثر تعاوناً ومصابرة ، والفرق الدقيق الذى له دلالته هوأن البنت أسهل ردعا وأسلس قياداً من الولد وهذا الفرق يدعم ما أوضحته المقاييس السابقة ..

يختلف الرجل عن المرأة إذن من ناحيتى التركيب الجسدى والتركيب السيكلوجى ولذلك كان للتوافق المزاجى بين الرجل والمرأة أهميته البالغة فى تربية الأبناء .

* * *

وعندما يولد الأطفال تولد معهم استعدادات نوعية عامة متشابهة وذات طابع خاص بالجنس البشرى ، أى أن هناك « لدى كل طفلٍ بذوراً[(١)] من التشابه أو ما يقرب من التشابه بين أشكال التصرفات الانفعالية قائمة على عوامل فطرية وناشئة عن الخبرات العامة المشتركة فى الجنس كله» ..

هذه الأنماط السلوكية الأولية التى يولد بها الأطفال والتى ينتج عنها استجابات تكاد تكون متشابهة نتيجة للتعلم ونتيجة للظروف الخاصة التى يحياها الفرد - يكاد يكون هذا كله هو السبب فى تلك الشكوى العامة من بعض ألوان السلوك التى لازمت أفراد الجنس البشرى طوال تاريخهم . وليس هناك حيوان أخر تطول مدة طفولته مثل الإنسان فهوالحيوان الوحيد الذى توقعة طفولته تحت طائلة السلطة الأبوية فالوالدان يتمتعان بالسلطان الدكتاتورى لفترة لاتتاح لأى دكتاتور فى العالم وتلك نعمة يغبط عليها الإنسان ذلك الحيوان الذى ينعم بسلطة دكتاتورية ممتعة !فالطفل ذو إمكانية لها طاقات ودوافع غضة تتطلب الرعاية والعناية والتوجيه: رعاية فى مأكله ومشربه وملبسه وعناية بسيره وسلوكه وكلامه وتوجيهه نحو أقوم السبل وأصحها للعمل والسلوك .

---

(١) كتاب :ميادين علم النفس »، الطبعة الثانية ١٩٦٢، الناشر دار المعارف ، فصل : «علم نفس الطفل» تأليف / هوراس إنجلش ، وترجمة د/ السيد محمد خيرى موسى ص١٠٧

وليس صحيحا أن الأب هو صاحب النفوذ الأول على الطفل والموكل بالأمر والنهى فى حياته ، إنما هى الأم والأم وحدها .إنها مصدر السلطة عنده ومنبع كل خير يتلقاه أو شر قد يصيبه . لذلك ارتبط بأوامرها ونواهيها التى تتطلبها حياته الاتكالية وبعطفها وحدبها الذى يفعم قلبه ويملأه قوة وصلابة - ارتبط كل ذلك بحب الأم الذى لايستطاع إجزاءه الجزاء الأوفى . غير أن الأم فى واقع الأمر لاتأمر ولاتنهى لأن عطفها وحبها الغريزى لوليدها يدرأ عنها صفة الأمر والنهى . إن المحب العطوف لايأمر ولاينهى إنما يستميل ويحبب ويتحبب . وكذلك الأم . ولما كان الطفل إمكانية ذات طاقات ودوافع أوليه فإنه لا يُنتظر منه أن يستجيب لكل استمالة أو منع ولكنما تنشأ المقاومة أو المخالفة لمايراد إلزامه به وهنا تتدخل السلطة بقصد الكف أو التقويم أو الردع .ولاينكرن أحد أن السلطة فى البيت لازمة وأن الأبوين شريكان فى إرسائها ، لكن الكثيرين من الأباء يفهمون السلطة على أنه تسلط . والفرق دقيق وخطير بين السلوك المسيطر والسلوك المتسلط : فالتسلط (١) محاولة لتعزيز السلطة بمطالبة الفرد بالخنوع لها وبالالتجاء إلى الضغط والكبت والإجبار - فبدلا من أن تستثير المتسلط الرغبة فى الطاعة يجبرعلى الخضوع خوفاً من العقاب والتهديد بالعقاب . والتسلط أبعد مايكون عن السيطرة وهو علامة فشل السلطة والدليل على أن الوالد أو المدرس ليس له شخصية أو مركز مسيطر فهو مضطر إلى أن يلجأ إلى وسائل أخرى ليضبط تصرف الطفل . فالسلطة علاقة بين الزعيم والمقود وليس تصرفا يقوم به الزعيم .. والسلطة الحقة ليست فى حاجة إلى تثبيت ولكنها تقبل وتؤدى وظيفتها بنجاح ولاتحتاج

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٠

إلى الرياسة أو إلى السلوك المسيطر كما أنها لاتستفيد منهما ».. ويؤدى التسلط كما أثبتت التجربة الشهيرة فى الزعامة الاجتماعية وهى التى قام بها : ليفين[٢] ، وليبت ، ووايت لا إلى سحق شخصية المقودين بل تولد طرزا متباينة من سوء السلوك تأخذ فى التجمع والتكوين حتى يأتى وقت اندفاعها فى وجه المتسلط .. وقد تبدو فى شكل مشاكسة بين أفراد الأسرة أثناء غياب ربها كما قد تبدو فى صورة إهمال وتكاسل فى أداء الواجب المقرر .. وخلاصة الأمر أن التسلط قد يدفع بالأبناء إلى الإهمال والفوضى لا فى حق أسرهم فحسب بل فى حق أنفسهم ومجتمعهم كذلك .. أطفال الأسرة إذن بحاجة إلى والد مسيطر لا إلى أب متسلط مذل لنفسياتهم هادم لشخصياتهم . ذلك لأن السيطرة لازمة للضبط والتنظيم وجعل الأطفال يأخذون مايراد لهم مأخذ الجد والاهتمام فيعينهم بذلك على تنظيم عملية تعلمهم هذا فضلاً عن أن السيطرة توحى بأهمية مايقدمه لهم الأباء فيزيد ذلك من تعظيمهم لهم أو للكبار بعامة من ناحية ويستثير اهتمامهم بمايتعلمون من ناحية أخرى .

---

(٢) نفس المرجع ص ١٣٢

مراجع الفصل الأول

- كتاب : التربية عند القابسى ... د / أحمد فؤاد الأهوانى
- كتاب : الأسرة والمجتمع ... د / علي عبد الواحد وافى
- كتاب : ميادين علم النفس العام .. / مجموعة من العلماء الأمريكيين
ترجمة / مجموعة من العلماء المصريين
- كتاب : مبادئ علم النفس العام .. د / يوسف مراد

الفصل الثانى

• الأســـــرة

• فـــى الأدب العـــــــربى

الـــزواج

- الاختيار
- عقد القران
- أفـــراح
- ولد أم بنت؟

الاختيــار

في لحظات اختيـار الزوج تتـراوح الأنظار وتختلف الآراء والأفكار وفق ما تميل إليه العروس وتراه أصلح لها وأحق بها .

روى أبو الحسن أن قد خطب سعيد بن العاص عائشة ابنة عثمان على أخيه فقالت : لا أتزوجه . قال : ولم ؟ قالت : هو أحمق له برذونان أشهبان فيحتمل مؤنة أثنين وهما عند الناس واحد .

لقد رفضت العروس ذلك الخاطب لصفة فيه وجدتها تعيب الرجل وتزرى به بين الناس وإنها صفة الحماقة .. وهل تصلح مع الأحمق معيشة ويهنأ بال ؟

ولم تكن الأم وحدها صاحبة الحق فى استشارة بناتها فى أمر زواجهن ، بل كان الأب لا يجد غضاضة ولا حرجا فى ذلك . ولم تكن الفتاة ممن يعقد الخجل ألسنتهن فكانت ثابتة الجنان صريحة فى إجابتها عما يطلب منها أن تجيب عليه .. روى أن الحارث بين عوف المرى - وهو أحد سادات العرب - ذهب إلى أوس بن حارثة الطائى ليزوجه إحدى بناته . فما كان من أوس إلا أن دخل منزله وقال لزوجته : أدعى لى فلانة - كبرى بناته - فأتته ، فقال : يا بنية ، هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب فقد جاءنى طالبا خاطبا وقد أردت أن أزوجك منه فماذا تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولمه ؟ قالت : لأننى أمراة فى وجهى رده وفى خلقى بعض العهده ، ولست

بابنة عمه فيرعى رحمي وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون على من ذلك ما فيه . قال : قومى بارك الله عليك ، ادعى لى فلانه - لابنته الوسطى - فدعتها ثم قال لها مقالته لأختها فأجابته بمثل جوابها وقالت : إنى خرقاء وليست بيدى صناعة ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقني فيكون على من ذلك ما تعلم وليس بابن عمى فيرعى حالى ولا جارك فى البلد فيستحيك . قال : قومى بارك الله عليك . ادعى بهية - يريد صغرى بناته - فأتى بها فقال لها ما قاله لهما ، فقالت : أنت وذاك . قال : قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه . فقالت - ولم يذكر مقالتيهما - لكنى والله الجميلة وجها الصناع يدا ، الرفيعة خلقا ، الحسيبة أبا ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير . قال : بارك الله عليك . ثم خرج وقال للحارث : قد زوجتك ياحارث بهية ابنتى . قال : قد قبلت .. ثم أمر أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها .

مما سبق يتضح أن من العرب من كان يفضل الزواج من داخل القبيلة لأن بنات العم أصبر على نبو الطبع وأكثر رحمة وحفاظا على العشرة . وكان بنو عبس يؤثرونهن وقد سئلوا أى النساء وجدتم أصبر ؟ فقالوا : بنات العم .

وقد هجا عقيق بن السليك امرأة من قومه لأنه خطبها فردته وقد كان هو ممن يؤثرون بنات قبيلته ، فقال :

ونبئتها أحرمت قومها .. لتنكح فى معشر أخرينا
فأما نكحت فلا بالرفاء .. إذا ما نكحت ولا بالبنينا
وزوجت أشمط فى غربة .. تجن الحليلة منه جنونا
خليل إماء يراوحنه .. وللمحصنات ضروباً مهينا
إذا ما نقلت إلى داره .. أعد لظهرك سوطا متينا
وقلبت طرفك فى مارد .. تظل الحمام عليه ركونا
يشمك أخبث أضراسه .. إذا ما دنوت لتستنشقينا
كأن المساويك فى شدقه .. إذا هن أكرهن يقلعن طينا

ومن العرب من كان يفضل الزواج من خارج القبيلة حتى لا يضوى النسل ويهزل .. وفى تفضيل الزواج من خارج القبيلة يقول القائل :

أنذر من كان بعيد الهم .·. تزوج أولا بنات العم

فليس ناج من ضوى وسقم

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اغتربوا لا تضووا وتلك حقيقة أثبت العلم الحديث صحتها .

*

وفى استشارة البنات فى أمر زواجهن نذكر حكاية الشاعر ذى الأصبع العدوانى فقد كان لذى الإصبع أربع بنات وكن يخطبن فيعرض ذلك عليهن فيستحين ولا يزوجن . وكانت أمهن تقول : لو زوجتهن ! فلا يفعل . فخرجن ليلاً إلى مُتَحَدَّث لهن فاستمع إليهن وهن لا يعلمن . فقلن : تعالين نتمنى ، ولنصدق .

فقالت الكبرى :

ألا ليت زوجى من أناس ذوى غنى .·. حديث الشباب طيب الريح

طبيب بأدواء النساء كأنه .·. خليقة جان لا ينام على هجر

فقلن لها : أنت تحبين رجلاً من قومك .

فقالت الثانية :

ألا هل أراها مرة وضجيعها .·. أشم لنصل السيف غير مبلد

لصوق بأكباد النساء وأصله .·. إذا ما انتمى من سرأهلى ومحتدى

فقلن لها : أنت تحبين رجلاً من قومك

فقالت الثالثة :

ألا ليته يملا الجفان لضيفه .·. له جفنة يشقى بها النيب والجزر

له حكمات الدهر من غير كَبْرَةٍ .·. نئين ولا الفانى ولا الضرع الغمر

فقلن لها : أنت تحبين رجلاً شريفا .

وقلن للصغرى : تمنى ، فقالت : ماأريد شيئا . قلن : والله لا تبرحين حتى نعلم ما فى نفسك . فقالت : زوج من عود خير من القعود .

فلما سمع ذلك أبوهن زوج أربعتهن .

* * *

وقد تختار إحدى[1] البنات بعض النساء ممن لهن خبرة بالرجل كى يخترن لها زوجاً صالحاً ترضاه .. فتذهب كل منهن وجهتها ثم تأتى لتعرض على راغبة الزواج صورة من تراه أحسن لها وأصلح . وهذا الصنف من النساء أشبه بالخاطبات اللاتى يهيئن منادح الزواج بين الرجل والمرأة . ومما يروى فى ذلك أن إحدى بنات الأقيال طلبت من وصيفاتها أن يلتمسن لها زوجا . فتفرقن فى الأحياء ثم جاءت إحداهن وهى صرطة بنت زرعة بن ذى خنفر فقالت : قد أصبت البغية . فقالت صفيه ولا تسميه . فقالت : غيث فى المحل ثُمال فى الأزْل مفيد مبيد ، يصلح النائر وينعش العاثر ، ويغمر الندى ويقتاد الأبى . عرْضه وافر ، وحسبه باهر ، غض الشباب طاهر الأثواب . قالت : ومن هو ؟ قالت : سبرة بن عوال بن شداد بن الهمال . ثم خلت بالثانية . فقالت : أصبت من بغيتك شيئا ؟ قالت : نعم ، قالت : صفيه ولا تسميه . قالت : مصامص النسب ، كريم الحسب ، كامل الأدب غزير العطايا ، مألوف السجايا ، مقتبل الشباب ، خصيب الجناب ، أسره ماض وعشيره راض . قالت : ومن هو ؟ قالت : يعلى بن ذى جدن . ثم خلت بالثالثة فقالت : ما عندك ؟ قالت : وجدته كثير الضيافد عظيم المرافد ، يعطى قبل السؤال وينيل قبل أن يُستنال ، فى العشيرة مُعظم وفى الندى مكرم جم الفواضل كثير النوافل ، بذال أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال ، قالت : ومن هو ؟ قالت رواحه ابن حمير بن مضحى بن ذى هلاهله . فاختارت يعلى بن ذى جدن فتزوجته واحتجبت عن نسائها شهرا ثم برزت لهن فأجزلت لهن الحباء وأعظمت لهن العطاء ..

---

(١) الأغانى ج ٥ ص ١٨٠

وأكثر ما يدور حديث النساء إنما يكون حول الزواج والزوجات ، وخير الأزواج وأكثر النساء شراً وفسادا .. ولا يخلو مجتمع النساء من ذلك الحديث فكل امرأة منهن تدلى بدلوها وتخبر عن تجريتها وبُعْد نظرها . وحديث النساء فى ذلك له دلالة عن الآمال التى تعتلج فى قلوب الكثيرات والأمانى التى تود كل منهن أن تحقق لها فتنعم بها وتسعد ..

اجتمع رهط من النساء فقلن : أى النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الخرود الودود الولود .. قالت الأخرى : خيرهن ذات الغناء وطيب الثناء وشدة الحياء .. قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع النفوع غير المنوع .. قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها الوادعة الرافعة لا الواضعة ..

قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خيرهم الحظى الرضى غير الخطال ولا التبّال . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ذو الحسب العميم والمجد القديم . قالت الثالثة : خيرهم السخى الوفى الرضى الذى لا يغير الحرة ولا يتخذ الضرة . قالت الرابعة : وأبيكن إن فى أبى لنعتكن ، كرم الأخلاق والصدق عند التلاقى والفلق عند السباق ويحمده أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها معجبة .. فصارت مثلا ..

* * *

ومن الرجال من عرك طبائع النساء وأحوالهن وسبر أغوارهن فوجد أيهن تجعل البيت روضة دانية القطوف ظليلة الظلال ، وأيهن تفسد حياة الرجل لأنها سقيمة الطبع أو ورهاء خرقاء .. والعارفون بجبلة النساء يعلمون كذلك نحائز الرجال وأطوار خلائقهم فمنهم من هو جدير بأن يكون زوجا ورباً لأسرة يفيض عليها من كرمه ويظلها بنبله ومنهم من يحيل البيت إلى قطعة من سقر .. وعن الخبراء بطبائع الرجال والنساء يحدثنا الأصمعى فيقول : أخبرنا شيخ من بنى العنبر قال : كان يقال : النساء ثلاث : فهيّنة

لينة ، عفيفة مسلمة تعين أهلها على العيش ولا تعين العيش على أهلها ، وأخرى وعاء للولد وأخرى غل فيُمَل يضعه الله فى عنق من يشاء ويفكه عمن يشاء .. والرجال ثلاثة : فهين لين عفيف مسلم يصدر الأمور مصادرها ويوردها مواردها ، وآخر ينتهى إلى رأى ذى اللب والمقدرة فيأخذ بأمره وينتهى إلى قوله ، وآخر حائر بائر لا يأتمر لرشد ولا يطيع مرشدا وعن أوفى بن دلهم أنه كان يقول : النساء أربع فمنهن مقمع لها شئ أجمع ومنهن تبع تضر ولا تنفع ومنهن صدع تفرق ولا تجمع ، ومنهن غيث همع إذا وقع بك أمرع ، قال الأصمعى : فذكرت هذا الحديث لأبى عوانه فقال : كان عبد الله بن عمر يزيد فيه : ومنهن القرشع وهى التى تلبس الدرع مقلوبا وتكحل إحدى عينيها وتدع الأخرى .

* * *

ومصداق الأمر فى اختيار الزوجة أو الرضاء بالزوج هو قوله صلى الله عليه وسلم :

* تنكح المرأه لمالها وحسبها ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك .

* لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها ولا لمالها فلعل مالها يطغيها .. وانكح المرأة لدينها ..

وإذا كان للأب أمر القوامة على ابنته فليس له أن يكرهها على قبول رجل تكرهه أو يبغضه قلبها :

* قال عليه الصلاة والسلام : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إنكم إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض .

* وقال عليه الصلاة و السلام لا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهن يحببن ما تحبون ..

عقد القــران

تخـتلف أسـاليب خطب الزواج أو خطب النكاح باخـتـلاف الدرجـة الحضارية والطبقة الاجتماعيـة التى يكون عليها المتقدمون للزواج . فالعبارة التى كانت عليها خطبة النكاح فى عـهد الجاهليـة .. غير تلك التى جاءت فى صدر الإسلام .. غـير تلك التى كانت تقال فى العصر الأموى أو العصر العـباسى . فـأسلوب خطب النكاح التى كـانت تقف بين الجـاهليـة وصدر الإسلام يتميز بقصر العبارة وقوتها وفخامة اللفظ والصدق فى ذكر فضائل كل من العروسين .. ولا يختلف الأسلوب كثيرا فى العصر الأموى ومستهل العـصر العباسى وكل ما نلحظه من تجديد هو سلاسة العبارة ورقة الألفاظ وإيراد آيات من القرآن الكريم أو أحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ترصع بهـا الخطبة فتزيدها رصانة وقوة وتشع فى جو حفل عقد القران روحاً إسلامية عطرة .

فـإذا ما بلغنا أواخر العصر العباسى ودخلنا عـهـود المماليك والأتراك وجدنا كتبة متخصصين يسطرون لولاة الأمر خطب الزواج ويخطون بأقلامهم مـا يتفق وطالب الزواج . ولقـد امتـازت هذه الخطب بطولهـا المفـرط وكثـرة تخريجها للعلل والأسباب وتكلف التبيان والتقرب من والد العروس . على أن خطبـة الزواج فـى عـصرنا الحـديث قـد غـدت خطبـة تقليـدية أو رمـزية يحـفظهـا الكـاتب لعـقـد الزواج (المأذون) عن ظهـر قلب ولا تتـعـرض فى

كثير أو قليل لمناقب الزوج أو الزوجة فهى من ثم تصلح لكل طبقة من الناس .

على أن الإيجاز فى خطب الزواج كان هو المطلب المرغوب فى معظم الأحوال .. قال الأصمعى : " كانت رجالات قريش من العرب تستحب من الخاطب الإطالة ومن المخطوب إليه الإيجاز" .. على أن ذلك لم يكن أمراً مطردا بين قبائل العرب كافة أو فى عصور الأدب العربى قاطبة .. ولنستفتح برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو خير مفتتح للفكر العربى والتقاليد العربية والأخلاق العربية التى صيغت بعد ذلك على غرار سنته ونهج هدايته ..

جاء فى خطبة أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزويجه خديجة بنت خويلد : " الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعل لنا بلداً حراما وبيتا محجوجا وجعلنا الحكام على الناس ثم إن محمد بن عبد الله بن أخى من لا يوزن به فتى من قريش ولا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا وإن كان فى المال قُل فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما أصبتم من الصداق فعلى " ثم وقف ورقة بن نوفل يرد على أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :" الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم . فاشهدوا علىَّ معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله .

وكان ورقة فى موقفه هذا ينطق بلسان عمر بن أسد عم خديجة الذى نهض فقال : " اشهدوا علىّ معاشر قريش أنى قد نكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد " ..

وفى هاتين الكلمتين المتبادلتين نجد إيمانا بالله رب إبراهيم وإسماعيل وقوة العبارة الجاهلية واعتزازاً بطهارة النسب النبوى وبعلو الشأن بين

القبائل بيد أننا لا نجد فيهما من سمات الإسلام شيئا لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن قد بعث بعد ..

* * *

ونثنى بحبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول من رفع صوته فى الإسلام يدعو المسلمين إلى الصلاة .. إنه بلال بن رباح رضوان الله عليه .. قال وقد خطب على أخيه إمرأة من بنى حسل من قريش : " نحن من قد عرفتم ، كنا عبدين فأعتقنا الله ، وكنا ضالين فهدانا الله وفقيرين فأغنانا الله وأنا أخطب على أخي خالد فلانة فإن تنكحوه فالحمد لله وإن تردوه فالله أكبر " .. وما أن أتم بلال خطبته حتى أقبل القوم بعضهم على بعض وقالوا : هو بلال وليس مثله يدفع فزوجوا أخاه .. ومن الطريف أن خالداً أخا بلال لم يعجبه كلامه فقال له : يغفر الله لك ، ألا ذكرت سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال بلال : مه ! صدقت فأنكحك الصدق ..

* * *

ونتبين قصر الخطبة وقوتها فى أدب العصر الأموى حين خطب محمد بن الوليد بن عتبة إلى عمر بن عبد العزيز أخته فقال :" الحمد لله ذى العزة والكبرياء وصلى الله علي محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد ، فقد حسن ظن من أودعك حرمته واختارك ولم يختره عليك وقد زوجناك على ما فى كتاب الله : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان " .. وتلك الخطبة نموذج إسلامى لرد أهل العروس نستطيع أن نقابله بنموذج جاهلى لتتضح الفروق أمام أعيننا وإن كان للدواعى النفسية التى أوحت بالقولين صدى تردده الألفاظ وتنطق به العبارات .. يروى أن صعصعة بن معاوية خطب إلى عامر بن الظرب حكيم العرب ابنته عمرة فرد الحكيم العربى على خطيب أبنته بقوله : " ياصعصعة إنك أتيت تشترى منى كبدى فارحم ولدى قبلتك أو رددتك

والحسيب كفء الحسيب والزوج الصالح أب بعد أب وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك أفر من السر إلى العلانية . يا معشر عدوان خرجت من بين أظهركم كريمتكم من غير رهبة ولا رغبة أقسم لولا قسم الحظوظ على الجدود ما ترك الأول للآخر ما يعيش به " .

وقد يقوم أحد المدعوين لحفل العرس بإلقاء خطبة الزواج .. ومما تذكره الروايات أن الخليفة المأمون حضر وهو أمير إملاكا (عقد نكاح) فسأله بعض من حضر أن يخطب فقال : " الحمد لله والمصطفى رسول الله وخير ما عمل به كتاب الله ، قال تعالى : " وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم .. ولم يكن في المناكحة آية منزلة ولا سنة متبعة إلا ما جعل الله في ذلك من تآلف البعيد وبر القريب وليسارع إليها الموافق ويبادر إليها العاقل اللبيب .. وفلان من قد عرفتموه في نسب لم تجبلوه خطب إليكم فلانة فتاتكم وقد بذل لها من الصداق كذا فشفِّعوا شافعنا وانكحوا خاطبنا وقولوا خيراً تحمدوا عليه وتؤجروا .. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم " .

ومن المفكرين من يُعدُّ خطبة للنكاح تكون معه حيثما ألقت به المصادفات في أي حفل لَلزواج فلا يعضله الموقف ولا يكلفه مؤنة التفكير فيما يجب أن يقوله ومن أولئك المفكرين الحسن البصري الذي اعتاد أن يقول في خطبة النكاح بعد حمد الله والثناء عليه " : ..

أما بعد فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المتقطعة والأسباب المتفرقة وجعل ذلك في سنة من دينه ومنهاج واضح من أمره وقد خطب إليكم فلان وعليه من الله نعمة وهو يبذل من الصداق كذا فاستخيروا الله وردوا خيراً يرحمكم الله " ..

ولقد أعطانا القلقشندي في كتابه : " صبح الأعشى " صورة لما هو جدير بأن يكون عليه مُلْتَمسُ النكاح من حيث اختيار أسرى الألفاظ إلى القلوب وأجمل المعاني وقعاً في النفوس وأجمل الأدلة على صدق القول ..

غير أن القلقشندى يوقعنا فى حيرة إذ أنه يطالبنا بأن يكون الملتمس قصيراً موجزا ثم يورد لنا مُلْتَمسات طويلة جدا لا تتفق مع الشرط الذى وضعه . فهل ياترى كانت ملتمساته الطويلة تلك قصيرة فى نظره ؟ أم أن ملتمساته التى تمثل بها كانت من صنعة كتاب محترفين ينتظرون الأجر .. والأجر على قدر الطول ؟

وعلى أية حال فلنبدأ بذكر ما اشترطه فى ملتمس النكاح فلقد قال : " الرقاع فى التماس الصهر والمواصلة يجب أن تكون مبنية على وصف المخطوب إليه بما يقتضى الرغبة ويدل الخاطب من نفسه بما يؤدى إلى الكفاية والأسعاف بالطِّلْبَة وينبغى للكاتب أن يبدعها من الألفاظ والمعانى المنتظمة فى هذا الباب أوقعها فى النفوس وأعودها بتقريب المرام وأدلها على صدق القول فيما تكفله من حسن معاشرة ولين معاملة وأن يذهب بها إلى الإختصار والإيجاز " .. ولقد اخترنا نموذجا يمثل هذا النمط من خطب النكاح ، فقد قال كاتبه : "من خصه الله تعالى بما خص به سيدى : من طهارة الأعراق والأنساب وشرف الأخلاق والآداب ، وأفرده باجتماع خلال الخير المتفرقة فى الأنام وعطر بثنائه ملابس الأيام رغب الأحرار فى مواصلته وهان عليهم بذل الوجه فى اختطاب ممازجته والتماس مواشجته ومناسبته .. وجدير بمن رغب إليه وطلب ماالديه واختير للمشابكة فى الولد واللُّحْمة والمشاركة فى المال والنعمة - أن يجيب ولا يمنع ويعمل ولا يقطع مصدقا لأمل من أفرده بارتياده وتوحده باعتماده عارفا له حق ابتدائه بالثقة التى لا يجوز رد من اعتمدها ولا صدر من حسن ظنها وقد علم الله تعالى أن مضى للمملوك مدة وهو يبحث متطلبا قريبا للتأهل مؤشراً لعمارة المنزل راغباً فى سكن تطمئن النفس إليه وتعتمد فى الفواتح والمصاير عليه

.. وكلما عُـرض للمملوك بيت أباه أو ذُكر له جناب قطع عنه رجاه : لعدم بعض الشروط التى يريدها فيه وتعذرها عليه ، فلما قرع سمعه ذكر سيدى على أنه الغاية التى لا مرقى بعدها والنهاية التى لا مطمح وراءها وأنه قد ظفر بالثقة ووصل إلى الأمنية ووجد من يجمع الخلال المرضية ويحوز من الفضل الشأو البعيد .. وكتب المملوك هذه الرقعة خاطبا كريمته فلانة ليكون لها كالعضد الضامن للمهند والجلد الحافظ للمجلد ويكون لمولانا كالولد البر بأبيه ولأخيها كالأخ الشفيق على أخيه .. فإن رأى سيدى أن يتدبر ما كتبه المملوك ويتسمع من توكيد رقعته ما حملته ويجيب إلى ماسأله فله علو الرأى فى ذلك إن شاء الله تعالى ..

أفـــراح

فى أفـراح العرس تـكون البـهـجـة غـامـرة والسـرور يعلو الوجـوه مترنما بالبشر متـغنيـا بالتـهنئة يزفهـا للعـروسين ونسـمع صوت الشعـر وهو يسوق تهنئته لهما فى حب ووفاء .. فأبو العلاء المعرى الذى قال يوماً :

لوأن كل نفـوس الـدنيـا رائيـة ∴ كـرأى نفسى تناءت عن خـزاياها
وعطلوا هذه الدنيـا فـمـا ولدوا ∴ ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

أبو العلاء الذى تشاءم من الحياة على هذا النحو هو الذى هنأ صديقه بعرسه ولا عجب فى ذلك فحب الحياة أقوى من كل تشاؤم فقد قال :

ليـهنك المجـد الذى بيـتـه ∴ فـوق سـراه النـجم لا يهـدم
زفت إلى دارك شمـس الضحى ∴ وحـولها من شـمـسـهـا أنجم
كـأنهـا من حـسنهـا روضـة ∴ يضـحك فيـها الآس والخـرم
للطيب فـى ضـدسـهـا سـورة ∴ مناخـر البـدر به تـفـحـم

وشاعرنا هاشم[1] الرفاعى هنأ صديقه محمداً بزفافه فقال :

مـحـمـد اليـوم إنى ∴ إلـيـك جـئـت أهـنـى
فـإن سـعـيت فـسـعـيى ∴ إلى صـديق وخـدن
وإن مـدحـت فـمـدحى ∴ فى غـيـر زور ومَـيْـن
أو إن أفـضـت ثـنـاء ∴ فـذلك الحـق منـى

١ - شاعر مصرى معاصر ١٩٥٦

وليس كل صديق ∴ فى الود يصدق سلنى
حباك ربك فضلا ∴ وتلك عقبى التأنى
فنلت ذات كمال ∴ أمنية المتمنى
رب العباد كساها ∴ بردى عفاف وصون

ويحمل البريد إلى العروسين بطاقات التهنئة من الأصدقاء والمحبين فبطاقة منها تقول على لسان صاحبها : "وصل الله هذا الاتصال السعيد والعقد الحميد بأحمد العواقب وأجمل المنح والمواهب وجعل عمل مسرتك ملتئما وسبب أنسك بإقباله منتظماوعرفك به تعجل البركات وتناصر الخيرات ولا أخلاك فيه من من التهاني بنجباء الأولاد وكبت بكثرة عددك[1] سائر الحساد وهنأ فى النعمة الجليلة بإخائك وعضدنى وسائر إخوانك ببقائك .. "

وجاء فى رسالة كتبها الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى[2]: "جعل الله الخبرة فيما يذره ويأتيه والنجاح مقرونا بما يعيده من الأوامر ويبديه والألسنة شاكرة ما يوليه من الأنعام ويسديه . صدرت هذه الخدمة معربة عن ثناء تأرج عرفه وولاء أعجز الألسنة شرحه ووصفه وتهنئة بهذه الوُصْلة المباركة وجعلها الله للاتصال بالسعادة سببا ومحصلة من الخيرات مراما وافرا وأربا وعرفه بركة هذا العرس الذى أصبح الخير بفنائه معرسا ونور الشمس من ضياء بهجته مقتبسا . فنحمد الله على هذه الوُصْلة سراً وجهرا ونشكر أن جعل بينه وبين السعد نسبا وصهرا .. منح الله المولى الرفاء والبنين والعمر الذى يفنى الأيام والسنين ورزقه إسعافاً دائما وإسعادا وأراه أولاده آباءً بل أجدادا إن شاء الله تعالى " ..

* * *

فى سويعات الفرح تلك يجد كل من الأب والأم ضرورة إسداء النصيحة لابنتهما العروس وهى ذاهبة إلى بيت زوجها لتستقبل حياتها الجديدة فماذا ياترى يقول كل منهما ؟ بماذا ينصحان ؟ ربما قال الأب بمثل ما قاله

١ ، ٢ - كتاب : " صُبح الأعشى " باب التهنئة بالزواج والتسرى "

أبوالأسود الدؤلي لابنته فقد قال : " إياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق وعليك بالزينة وأزين الزينة الكحل وأطيب الطيب إسباغ الوضوء ، وكونى كما قلت لأمك فى بعض الأحايين :

خذى العفو منى تستديمى مودتى .·. ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
فإنى وجدت الحب فى الصدر والأذى .·. إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب
ولا تنقرينى نقرة الدف مرة .·. فإنك لاتدرين كيف المغيب
ولا تكثرى الشكوى فتذهب بالهوى .·. ويأباك قلبى والقلوب تقلب

ومن يوصى ابنته تلك الوصاة ويهديها تجربته فى الحياة على هذه الصورة لا يُقر الشاعر أبا النجم العجْلى فيما أوصى به بناته الثلاث ..

فقد سأله الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك : ومالك من الولد والمال ؟ قال : أما المال فلا مال لى وأما الولد فثلاث بنات وبُنىّ يقال له شيبان .. فقال هشام : هل زوجت من بناتك أحدا ؟ قال : نعم ، زوجت اثنتين وبقيت واحدة تَجْمز (تعدو وتسرع) فى أبياتنا كأنها نعامة ، قال هشام : وما وصيت به الأولى ؟ فقال : قلت :

أوصيت من برة قلبا حرا .·. بالكلب خيرا والحماة شرا
لا تسأمى ضربالها وجرا .·. حتى، ترى حلو الحياةو مرا
وإن كستك ذهبا ودرا .·. والحى عميهم بشر طُرا

فضحك هشام وقال : فما قلت للأخرى ؟ فقال : قلت :

سبى الحماة وابهتى عليها .·. وإن دنت فازدلفى إليها
وأوجعى بالفهر ركبتيها .·. ومرفقيها وإضربى جنبيها
وظاهرى النذر لها عليها .·. لا تخبرى الدهر ابنتيها

فضحك هشام حتى بدت نواجذه وسقط على قفاه وقال :

ويحك ! ما هذه ؟ وصية يعقوب ولده ؟ فقال له : وما أنا كيعقوب

ياأمير المؤمنين قال : فما قلت فى الثالثة ؟ قال : قلت :

أوصــيك يا ابنــتى فــإنى ذاهب ∴ أوصــيك أن تحـمـدك القـرائب
والجار والضيف الكريم الساغب ∴ لا يرجع المـسكين وهو خــائب
ولاتنى أظـفــارك الســــلاهب ∴ منهن فى وجـه الحـماة كـاتب
والزوج إن الزوج بئس الصاحب

فقال هشام : وكيف قلت لها هذا ولم تتزوج ! وأى شئ قلت فى تأخير زواجها ؟ قال : قلت :

كـأن ظُـلامـة أخت شـيـبـان ∴ يتــيـمــة ووالداها حـيــان
الرأس قــمل كله وصــئـبــان ∴ وليس فى الساقين إلا خيطان
تلك التي يفـزع مـنهـا الشـيطان

ثم كافأه هشام لا على حسن النصيحة بل على دعاباته الطريفة ..

* * *

ولا تنسى الأم أن تسر إلى ابنتها أمحص النصائح وأخلصها فهاهى ذى امرأة عوف بن محلم الشيبانى تقول لابنتها أم إياس .. وكان عمرو بن حجر جدامرئُ القيس الشاعر قد خطبها إلى أبيها فزوجها منه فلما كان بناؤه بها أوصتها أمها وصية قيل عنها : إنها لم تدع شيئا من تأديب المرأة وكفايتها إلا وعته فيها .

قالت :" أى بنية ! إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت وعشك الذى فيه درجت إلى رجل لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبدا واحفظى له خصالاً عشرا يكن لك ذخرا .. أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة .. وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح ..

وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه فإن تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة .. أما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله والإرعاء على حشمه وعياله .. وملاك الأمر فى المال حسن التدبير وفى العيال حسن التقدير .. أما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمرا ولا تفشين له سرا فإنك إن عصيت أمره أَوْغَرْت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره .. ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مغتما والكآبة بين يديه إذا كان فرحا " ..

وربما استصويت أم العروس ما نصحت به أمهات الزوجات الأربع للنعمان بن المنذر الذى قيل إنه تزوجهن من أربع قبائل تأييدا لعرشه وتثبيتا لملكه وكن : واحدة أنمارية ، والثانية سلمية ، والثالثة نمرية ، والرابعة أسدية .

قال النعمان للأولى : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى عطرى جلدك وأطيعى زوجك وأجعلى الماء آخر طيبك .

وقال الثانية : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى لا تجلسى بالفناء ولا تكثرى المراء واعلمى أن أطيب الطيب الماء .

وقال للثالثة : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى : لاتطاوعى زوجك فتمليه ولاتعاصيه فتشكيه واصدقيه الصفاء واجعلى آخر طيبك الماء .

وقال للرابعة : ما أوصتك به أمك ؟ فقالت : قالت لى : أدنى سترك وأكرمى زوجك واجتنبى الإباء واستنظفى الماء .

ولكن ماأخبث الوصية التى أسدتها إمرأة إلى ابنتها وقد رسمت لها سبيل الشغب والعصيان .. قالت الشيطانة الماكرة لابنتها : " اقلعى زُج رمحه فإن أقر فاقلعى سنانه فإن أقر فاكسرى العظام بسيفه فإن أقر فاقطعى اللحم على ترسه فإن أقر فضعى الإكاف على ظهره فإنما هو حمار.

* * *

ثم يزور العروس والداها ليطمئنا على حالها فى بيتها الجديد فتسأل الأم ابنتها عن أخلاق زوجها وطباعه وسلوكه وهنا قد تجيبها بما أجابت عروس فقالت :" يا أمه[1] ، من نشر ثوب الثناء فقد أدى واجب الجزاء وفى كتمان الشكر جحود لما وجب من الحق ودخول فى كفر النعم .. فقالت لها أمها : أى بنية أطبت الثناء وقمت بالجزاء ولم تدعى للذم موضعا . إنى وجدت من عقل لم يَعْجَل بذم ولا ثناء إلا بعد اختبار . فقالت : ياأمه ، ما مدحت حتى اختبرت ولا وصفت حتى عرفت ..

وربما رد الزوج على امتداح العروس له بما رد به زوج هذه الفتاة وقد جاء فيه : ما وفيتك حقك ولا شكرتك إلا بفضلك ولا أثنيت إلا بطيب حسبك وكريم نسبك .. والله أسأل أن يمتعنى بما وهب لى منك .وكذلك يذهب والد العروس ليطمئن على الحياة الزوجية لابنته وهذا مافعله ذو الإصبع[2] العدوانى مع بناته الأربع حين ذهب لزيارتهن . قال للكبرى : يابنية ، ما مالكم ؟ قالت : الإبل قال فكيف تجدونها ؟ قالت : خير مال ، نأكُل لحومها مُزَعا ونشرب ألبانها جرعاوتحملنا وضعيفنا معا . قال : فكيف تجدين زوجك ؟ قالت : خير زوج يكرم الحليلة ويعطى الوسيلة . قال : مال عميم وزوج كريم .

١- الأغانى حـ١ صـ ٣٥٦ ٢ - الأغانى حـ ١ صـ٣٥٧

ثم قـال للثانيـة : يابنيـة ، ما مالكم ؟ قالت : البقر. قـال : فكيف تجـدونـهـا ؟ قـالت : خـيـر مـال تألف الغناء ، وتُودِك السـقـاء وتملأ الإناء ونسـاء مع نسـاء . قـال : فكيف تجـدين زوجك ؟ قـالت : خيـر زوج يكرم أهله وينسى فضله . قـال : حظيت وبظيت ثم قال للثالثـة : ما مـالكم ؟ قـالت : المعزى . قال : فكيف تجدونها ؟ قالت : لابأس بها نولدها فطما ونسلخـهـا أدمـا . قـال : فكيف تجـدين زوجك ؟ قـالت : لابأس به ليس بالبخيل الحِكر ولا بالشمح البَذِرِ . قال : جدوى مُغْنية .

ثم قال للرابعة : ما مالكم ؟ قالت : الضأن ، قال : فكيف تجدونـها ؟ قالت : شر مال : جُوف لايشبعن ، وهيم لاينقعن وصم لايسمعن ، وأمر مغويتـهن يتبعن . قـال : فكيف تجدين زوجك ؟ قـالت : شـر زوج يكرم نفسه ويهين عرسه . قال : أشبه امرأً بعض بَزِّهِ

ولـــد أم بنت

كثير من الناس من يكرهون خلفة البنات ويظنون بهن الظنونا لكن فى البنات الخير والبركة فهن عمارة الدنيا وزينتها . قال سبحانه : "واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء مايحكمون (٥٨ ، ٥٩ سورة النحل)

ولقد حث رسول الله صلى الله على الإحسان إلى البنت والإفضال عليها بكل خير فقال عليه السلام : من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن تغذيتها وأ سبغ عليها من النعمة التى أسبغ عليه الله كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة . ومن الرجال رغم إسلامهم من يكرهون البنات ويرونهن سببا لكل عنت وشقاء ومن هؤلاء عمرو بن العاص الذى دخل يوماً على معاوية بن أبى سفيان وعنده بنت يلاعبها فقال له : أنبذها عنك ياأمير المؤمنين فوالله إنهن يلدن الأعداء ويقربن البُعداء ويؤدين إلى الضغائن . فقال معاوية : لاتقل هذا ، فما ندب الموتى ولا تفقد المرضى ولا أعان على الحزن مثلهن .

ومن الناس من كان يفضلهن على الأولاد وذلك مثل معن بن أوس فقد كان له ثمانى بنات قال عنهن : ما أحب أن يكون لى بهن رجال ،

وفيهن يقول :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم .·. وفيهن لا تكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى .·. عوائد لا يمللنه ونوائح

ويزيد من حب بعض الناس للحياة حبهم لبناتهم لأنهن يكن أحوج إليهم في تربيتهن وحمايتهن وإرساء قواعد مستقبلهن ومن هذا البعض كان أبو خالد القنائي وكان من غلاة الخوارج ، قال عندما طلب للقتال :

لقد زاد الحياة إلى حبا .·. بناتي إنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدى .·. وأن يشربن رَنْقا بعد صاف
وأن يَعْرَيْن إن كسى الجوارى .·. فتنبو العين عن كوم عجاف
ولولا ذاك قد صوبت مهرى .·. وفى الرحمن للضعفاء كاف
أبانا مالنا إن غبت عنا .·. وجدت الحى بعدك فى إختلاف

وإذا كان النساء يلدن البنات فما ذنب النساء وما جريرة البنات ؟

لقد هجر أبو حمزة الضبى خيمة امرأته لأنها ولدت بنتا فمر يوما بخبائها وإذا هي ترقصها وتقول :

ما لأبى حمزة لا يأتينا .·. يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا .·. تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا .·. ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

فما كان من أبى حمزة إلا أن دخل إليها وقبل رأسها واعتذر ..

* * *

وأياً كان الأمر فإن الأسرة تقيم حفلا للوليدة الصغيرة يتلقى فيه الأب والأم التهنئة من المهنئين .

فمن الذين هنأوا الأب بمولودته أبو الحسين بن سعد فقد قال : «النعمة نعمتان : أحدهما تعجل الأنس والأخرى تدخر الأجر وعلى حسب ما تتلقى

به من الشكر على ظاهر المحبوب والتسليم فيما يجرى مجرى بعض المكروه ويكون المتاع عاجلاً والثواب آجلاً . وما قدمت القول إلا لما ظننته يعرض لك من الوجوم فى هذه الموهبة فى المولودة التى أرجو أن يعظم الله بركتها ويجعلها أيمن مولود فى عصرها ودالة على سعادة أبيها وجدها . ولئن كان فى الطبع حب الذكور والشغف بالبنين فإن البنين من البنات وهن باليمن معروفات وبالبركات موصوفات وبالذكور فى أثرهن مبشرات . فهنَّاك الله بالنعمة فيها تهنئة لا تنقضى سعادتها ولا يعترض النقص والتقدير شيئا منها وأبقى هذه الصبية ممتعا أبوها بها وينشأ له الحظ من حداثتها وبلغها أفضل مبالغ الصالحات القانتات من أمهاتها وجعل فى مولدها أصدق دليل على طول عمرأبيها وسعادة جَدِّه وتضاعف نعم الله عنده إنه لطيف وجواد »

* * *

أما على بن خلف فإنه يزيد فى تهنئته التى بعث بها إلى صديقه من حسن التعليل وجميل الإيراد ما يرسم حجة لإقناع من أحزنه أن رزق ببنت ، فهو يقول :"... وينهى[1] أن المملوك اتصل به ارتماض مولانا بمقدم الكريمة الوافدة بطالع السعادة المتجددة فعجب المملوك من وقوع ذلك من مثل مولانا مع كمال نبله وشرف عقله وعلمه فإن الله تعالى جل اسمه يقول: « يعطى لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » وأن ماجدده الله تعالى من مواهبه جدير أن يتلقى بالسرور والفرح لابالإستياء والترح لاسيما وأن الذكرإنما يتفضل على الأنثى بنجابته لابحليته وصورته وقد يقع فى الإناث من هو أشرف من الذكر طبعا وأجزل عائدة ونفعا. روى أن رسول الله صلى

(١) صبح الأعشى ج٩ ص٦٢٥

الله عليه وسلم قال :إذا رزق العبد . الأنثى نادى مناد فى السماء ياأهل الدار أبشروا بالعز . فليستقبل مولانا الرزق بالشكر فإن العز يتبعه ولايعارض الله تعالى فى إرادته ولايستقل شيئامن هبته . والله تعالى يعرفه يمن عهودها وسعادة قدومها وأن يسره بعدها بإخوة متتابعين متلاحقين يؤيدون أمره ويُحْيُون بعد العمر الأطول ذكره » ..

وأبو الفرج الببغاء حين كتب تهنئته فإنه أرجع الأمر كله إلى الله ثم أوصى صاحبه بأن يرضى بحظه وما ساقه الله إليه من نعمة ودعا الله أن يجزل له الحِبَاء وينعم عليه بالذكور من الأبناء .. وقد كتب يقول : " لوكان[1] الإنسان متصرفاً فى أمره بإرادته قادراً على إدراك مشيئته لبطلت دلائل القدرة واستحالت حقائق الصنعة ودرست معالم الآمال وتساوى الناس ببلوغ الأحوال غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته ممنوعا وعلى ماعنه ظهر فى الابتداء مطبوعا كان المخرج له إلى الوجود من العدم فيما ارتضاه له غير متهم ، ومولانا أيده الله - مع كمال فضله وتناهى عقله وحدة فطنته وثاقب معرفته أجلى من أن يجهل مواقع النعم الورادة من الله تعالى عليه أو يتسخط مواهبه الصادرة إليه فيرمقها بنواظر الكفر ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد أتصل بالمملوك خبر المولودة كرم الله عزتها وأطال مدتها وعرف مولانا البركة بها وبَلّغه أمله فيها . وما كان تغيره عند اتضاح الخبر وإنكار ما اختاره له سابق القدر فعجب المملوك من ذلك واستنكره من مولانا وأنكره لضيق العذر فى مثله عليه . وقد علم مولانا أنهن أقرب إلى القلوب وأن الله تعالى بدأ بهن فى الترتيب فقال

(١) المرجع السابق حـ ٩ صـ ٦٢٥

جل من قائل : " يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور :" ... وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى وبحسن التقبل أحرى . ولكم نسب أَفَدْنَ وشرف استحدثن من طرق الإصهار والاتصال بالأخيار . والملتمس من الذكر بغايته لاصورته وولادته ولكم ذكر الأنثى أكرم منه طبعا وأظهر منه نفعا . فمولانا يصور الحال بصورتها ويجدد الشكر على ماوهب الله منها ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته الأولى بمثله إن شاء الله تعالى »

أما فى التهنئة بالمولود الذكر فإن الكل يطرب له ويسعد وأكثر من هذا فربما جاءت التهنئة مسبقة أى أن تبشر العروس بطفل قبل أن تحمل به وقد كانت تلك هى هدية الأستاذ العقاد إلى عروسين من أصدقائه . لقد جاءت فى صورة حوار بين الطفل الذى مازال فى عالم الغيب وبين أبويه يستحثهما أن يحققا له الحياة كى يحقق مسئولياته فيها .. يقول الأستاذ العقاد فى قصيدته :

" نداء الطفل " :

سرى فى الآذان	∴	فى غفوة الوسنان
نداطفل جرئ	∴	مستعجل لهفان
عجبت منه صغيرا	∴	يقول طلق اللسان
أبى كريم وأمى	∴	كريمة فى الحسان
كلاهما فى رواء	∴	من الصبا وازديان
كلاهماذوفؤاد	∴	مجمل بالحنان
كلاهما يتمنى	∴	بين الصغار مكانى
فلى أحق رجاء	∴	فى عالم الأنسان
وفى ولادة يمن	∴	تزف بالمهرجان
وفى احتفال ختان	∴	وفى احتفال قران

وفي احـتـفـال نجاح ∴ يجوز كل امتحان
هيا ادعوانى سريعا ∴ إليكما واهديانى
وقربالى ضيا الشمو ∴ س والأكوان
قالوا : انتظر! قلت : لا لا ∴ هيهات لست بوان
قالوا تعقل قليلا ∴ ياأعقل الفتيان
فكل شئ لدينا ∴ موكل بأوان
أتحسب العيش رهنا ∴ بما قضى الأبوان
فصاح صيحة سخط ∴ وقال فى عنفوان
مالى أنا ؟ أنا مالى ∴ هيا ادعوانى ادعوانى
أتأبيان لقائي ∴ ما أنتما منصفان
لا تعذلوه إذا ما ∴ أطال فى الهذيان
فالطفل غير صبور ∴ على الحجا والبيان
والطفل هيهات يدرى ∴ يوما بحكم الزمان
فاستميلاه برفق ∴ وحيلة وامتنان
ولا تطيلا عليه ∴ فى الغيب عد الثوانى
فكلنا نرتجى ∴ قدومه فى أوان

أما وقد ولدت الزوجة ولدا فلا تسل عن مبلغ سرورها هى أولا وعن مقدار ابتهاجها وفرحتها .. إن لسان حالها يقول ما قالته أعرابية :

ياحبذا ريح الولد * ريح الخزامى بالبلد

وقد تدعى الأم أنها سمعت هاتفا ساعة السحر يبشرها بغلام مسعود الطالع وذلك كما سمعت ليلى بنت المهلهل أم عمرو بن كلثوم حين هتف بها الهاتف فقال :

يالك ليلى من ولد ∴ يقدم إقدام الأسد
من جسمه ينمو العدد ∴ أقول قولا لافند

ثم ينبئها الهاتف بما سيكون عليه وليدها فيقول :

أنى زعـــيم لك أم عـــمـــر .·. بما جـد الجد كــريم النجـر
أشــجع من ذى لـبـد هـزبر .·. وقـــاص آداب شـديد الأسـر
يصرعهم فى خمسة وعشر

ويتلقى الأب التهـانى من المهنئين فـهـذا أبو العـتـاهيـة يهنئ مـوسى الهادى بمولوده الذى رزقه فى أول يوم ولى فيه الخلافة فقال :

أكـثـر موسى غـيظ حـسـاده .·. وزيـــــن الأرض بـــــأولاده
وجـاءنا من صـلـبـه سـيـد .·. أصـيـد فى تقـطيع أجـداده
واكـتـست الأرض بـه بهـجـة .·. وأسـتـبـشـر الملك بميـلاده
وأبتـسم المنبـر عن فـرحـة .·. بقـوم صـدق فـوق أعـواده
كـــأننى بعـــد قـليل به .·. بين مـــواليـــه وقـــواده
فى جـــحـفل تخـفـق راياته .·. قـــد طبق الأرض بأجـناده

وقد تكون التهنئة على غرار ما قاله أبو على الضرير الذى هنأ بقوله :

أتيتك جـذلان مـسـتـبـشـرا .·. لبـشـراك لما أتانى الخـبـر
أتانى البـشـير بأن قـد رزقت .·. غـلامـا فـأبهجنى مـا ذكـر
وأنك والرشـيـد فـيـمـا فـعـ .·. ـلت أسميته بـاسم خير البشر
وطهـرته بعـد أسـبـوعـه .·. ومن قبل فى الذكر مـا قد طهر
فـعـمـرك الله حـتى ترا .·. ه قـد قـارب الخطو منه الكبـر
وحـتي ترى حـولـه من بنيـه .·. وإخـوتـه وبنوهـم زُمـر
وحـتى يروم الأمـور الجسـام .·. ويُرجى لنـفع ويخـشى لـضـر
وأوزعـك اللـه شكـر الـعطـاء .·. فـإن المزيد لـعـبـد شـكـر
وصلى على السلف الصـالحيـ .·. ـن منكم وبـارك فـيمن غـبـر

وقد هنأ السيـد محمد شهاب الدين بن إسماعيل المصرى (١٨٦١) بمولود فقال :

أدركـــؤوس الحظ ياذا المـدير .·. حيث الـصبا رقت وراق الـغدير
وطالـع الأفـــراح فـــينـا بدا .·. وبالتـهـانى قـد أتانا البـشـير
وبالعـز وافـانا بـنجل سـمـا .·. إذ لحظه نحـو المعـالى بصـير

ومن قوله :

قد أتقن الرحمن بهجة كوكب ∴ كملت معانى حسنه باللفظ
وحباه بهلا عن قسى حواجب ∴ يرمى النهى فتكابهن اللحظ
جاءته قابلة عناية جده ∴ وتكلفته يد العلى بالحفظ
ولد ولادته التهانى أرخت ∴ لمحمد مجد سعيد الحظ

والتهنئتان نموذجان للشعر فى العصر التركى وأخص ما يتميزان به الغثاثة والتكلف وهو طابع الأدب فى جملته فى هذا العصر .

* * *

ولا يتلقى الوالد المجدود التهانى من الشعراء فحسب بل ويتلقاها كذلك من الكتاب فهذا أحمد[1] بن يوسف يبعث برسالة يهنئ فيها بمولود فيقول ": أما بعد ، فليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بَهِجا أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقك وعرفنى من جميل رأيك فزادك الله خيرا وأدام إحسانه إليك وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سريا أجمل صورته وأتم خلقه وأحسن فيه البلاء عندك فاشتد سرورى بذلك وأكثرت حمد الله عليه فبارك الله فيه وجعله باراً تقيا يشد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك "..

ومن رسالة بعث بها على بن خلف ": أن أفضل[1] النعم موقعا وأشرفها خطرا وموضعا نعمة الله تعالى فى الولد لزيادتها فى العدد وقوة العضُد وما يتعجل من عظم جمالها وزينتها ويرجى من حسن مآلها .. وعاقبتها فى حفظ النسب والأصل وحسن الخلافة علي الأخلاء ، وجميل الذكر والثناء ومتقبل الأستغفار والدعاء .. وقد اتصل بالمملوك بزوغ هلال

---

١ - من كتاب بنى العباس كان يتولى ديوان الرسائل للمأمون مات سنة ٢١٣هـ
٢ - صبح الأعشى جـ ٥٩ ص ٧٤٠ ،

سماء المجد ومتعلق الإقبال والسعد . فأشرقت الأيام بإشراقه ووثقت الآمال باجتلائه واتساقه فقام المملوك عن مولانا بشكر هذه النعمة المتجددة والموهبة الراهنة الخالدة وهنأت نفسى بها وأخذت بحظى منها . والله تعالى يعرفه يمن المولود من أطهر والدة وأطيب والد ويعمر به منزله ويؤنس ببقائه رحله ويبلغ محبيه من الآمال فيه ما بلغهم فى الماجد أبيه إن شاء الله تعالى ".

* * *

ونجد فى رسالة للشيخ شهاب الدين محمود الحلبى لُمعَاً من رقة الإحساس وفصاحة البيان وحس التعليل فقد قال مبتدئا ببعض أبيات من الشعر :

هنئت بالإسعاف والإسعاد[2] .:. ونفاذ أمر فى العدا بنفاذ
وبقيت ما بقى الزمان مهنئا .:. ووقيت شر شماتة الحساد
يامالك الرق الذى أضحى لنا .:. من جوده الأطواق فى الأجياد
خلدت فى عيش هنى أخضر .:. يسطو ببيض ظبا وسمر صعاد
حتى يخاطبك الزمان مبشرا .:. متعت بالإخوان والأولاد

جدد الله فى كل يوم له مسرة وبشرى وأطاب لعرفه عرفا ونشرا وشد له بولده السعيد الطلعة أزرا وأسرا وسرى به الهموم عن القلوب وأصارها لديه أسرى ورفع درجته إلى سماء المعالى ليقال سبحان الذى بعبده أسرى .. المملوك يخدم المولى ويهنيه ويشكره ويطلعه على ما حصل له من الابتهاج للسبب الذى ينهيه ويذكره وهو أن اتصل به قدم المسافر بل إسفار البدر وظهور ميمون الغرة الذى جاء لأهله بأمان من صروف الدهر وهو الولد العزيز الموفق النجيب فلان أبقاه الله تعالى ليحيا مشكوراً محمودا منصورا

١ - صبح الأعشى ج٩ ص ٧٤٠
٢ - نفس المرجع صـ

بسيف مجده وسنان سعده مسعودا وأدام عزه وعلاه وأعلى نجمه وخلد شرفه وبهاه وضاعف سناءه وسناه ، وأرانا منه ما أرانا من السعادة فى أبيه فسُرّ وابتهج بهذه النعمة غاية السرور والابتهاج واتضح له فى شكر إحسان المولى وحسن ولده كل طريق ومنهاج وسأل الله تعالى أن يطول له عمرا ويجعله لإسعاد والده وإسعافه ذخرا ليرتعا فى رياض الدعة فى صحة وسلامة ويجعلا فى فناء العلا لهما دار إقامة ويبلغا من السعادة درجة لا تريم عالية ولا ترام وتخضع لهما الليالى والأيام ويرشقاهما بسهام الصروف ويطعناهما بأسنتها ويفهما دعاء الأيام لهما من صدورهما ويسمعاه من ألسنتهما مخاطبة لأبيه ومنشدة لسائر أهله ومحبيه :

مد لك الحياة مدا .·. حتى ترى نجلك هذا جدا

تهان بمولودة .. وتهان بمولود .. فماذا يقال إذا وضعت الأم تؤما وكان التؤم ذكرا وأنثى ؟

أطرف ما قيل فى هذه الحالة ما كتبه أحد الشعراء وقد ولد له ذكر وأنثى من جارية سوداء .. فقد قال :

وخصك رب العرش منها بتؤم .·. ومن ظلمات البحر تستخرج الدرر

وجدك أضحى وارثاً علم جابر .·. فأعطاك من ألقاب الشمس والقمر

* * *

ومن الواجب على المهنأ أن يرد التحية .. يقول القلقشندى عن رد تحيات المهنئين بالمنثور من القول ": أجوبة[1] هذه الرقاع يجب أن تبنى على شكر واهتمام المهنئ ورعايته والاعتداد بعنايته وأن الزيادة في تجدد المهنى (به) زيادة فى عدده وأن نصيبه من تحرك السرور فيما يخلص إليه من المواهب كنصيبه لتناسبهما فى الإخاء وتوافيهما فى الصفاء وأن تراعى مع

ذلك مرتبه المهنىً والمهنئً ويبنى الخطاب على ما يقتضيه كل منهما " ..

ويسوق القلقشندى هذه الرسالة كمثال للرد على المهنئين وهى من إنشاء كاتب من كتاب الرسائل وقد جاء فيها ":..[٢] وينهى ورود الكتاب الذى تشرف المملوك بوروده وأشرقت الأيام بكمال سعوده وأرغم ببلاغته معطس مناويه وحسوده فشكر أيادى من أنعم بإرساله واكتسى بالوقوف عليه حلة من حلل فخره وجماله وبالغ فى إكماله حتى وقف إجلالاً له بين يديه ثم تلا آيات حسنه على أذنيه فوجده مشتملا على إحسان لم يسبقه إلى مثله أحد ومنن أودعها فيه فلا يحصيها حصر ولا عدد فهيج بوروده رسيس الأشواق وتقلد بأنعام مرسله كما قلدت الحمائم بالأطواق ووجد لوعة لا يحسن وصفها لسان العصر فى العصر المملوكى على الأوراق .. وعلم ما أشار إليه المولى من التهنئة بالولد الجديد بل بأصغر الخدم والعبيد وما أبداه من الابتهاج لميلاده وأظهره من التفضل المعروف من آبائه الكرام وأجداده .. ولم لا يكون الأمر كذلك والوالد مملوكه وهو مملوك السادة الأجلاء أولاده ، حرس الله مجده ومتعه بثوب مكارمه وخفض قدر محاربه ورفع كلمة مسالمه ولا زال مماليكه تتزيد تزيد الأيام وسعادته باقية بقاء الأعوام وعين العناية تحرسه فى حالتى السفر والمقام إن شاء الله تعالى "

* * *

ومن التهنئة بالمولود إلى التهنئة بختانه ولا يذكر الأدب شيئا كثيرا فى هذه الناحية وأيا كان السبب فى قلة الكلام عن الأختتان فإن القلقشندى فى كتابه : " صبح الأعشى " يقدم تهنئة أزجاها صاحبها إلى أمير اختتن ولداه .. ومما جاء فى هذه التهنئة :

" .. فمن[١] خصائص ما حباه الله بعد الذى قدم له فى نفسه - نفس الله مدتها ووسع له مهلتها وأفنى الأعداد دون فنائها والأعمار دون

---

١ - المرجع السابق صـ ٧٤٢

تصرمها وإنتهائها : من الفضائل المشهورة والمحاسن المذكورة والمناقب المأثورة وأقسام الفضل الذى ينقضى دون تصرم منازل وصف الواصف إذا أفرط وينتهى دون أيسرها أمل الأمل إذا اشتط - ما وهب الله له من أولاد سادة فضلهم فى الأخلاق والصور وأكملهم فى الأجسام والمِزرَ وقدمهم فى العقول والأفهام والقرائح والألباب ولم يجعل للمعيب فيهم سيرة ولا للإناث بينهم شركة حتى يكون مسلما لهم قصب العلا والمفاخر وصدور الأسرة والمنابر من غير منازع ولا مقارع ولا مساهم ولا مقاسم وزادهم من النماء فى النشء والبركة واليمن بما يؤذن الحاضر منه بالغابر وبدل البادى على الآخر وعدا من الله تعالى ذكره لهم بأوفى السعادات وأكمل الخيرات وأعلى الدرجات . أرجو أن يجعل الله النجح قرينه والنجاد ذريعته وما أولاه فيهم في هذه الحال الحادثة التى يغدق الله بها أداء الفريضة وكمال الشريعة ويقع التطير بالختان الذى جعله الله من شروط الإيمان وفرضه على جميع الأديان : من السلامة على عظم الخطر وشدة الغرر فى إمضاء الحديد على أعضاء ناعمة وإيصال الألم إلى قلوب وادعة لم تقارع نصبا ولم تعان وصبا واجتمع فيه إلى رقة الصبا وضعف الأسر والقوى إعتياد الرحمة ومخالفة الترفه والتنقل بين الشهوات على أن كل واحد من الأبوين شهد المعركة أعزل حاسرا وباشر الحرب مغررا مخاطرا . فثبت لوقع السلاح وصبر على آلام الجراح وأبلى بلاء الفارس المدجج والكمى المقنع ثم خرج خروج شبل الليث وفرخ العقاب كالقِدْح المعلى والشهاب الساطع والنجم الثاقب . وكان فلان أكثرهما تغيرا فى وجه قِرْنه وسطوة على مُنَازله وكل قد حصل فوق الخصل وحوى فضيلة السبق واستحق اسم البأس والشدة وحلية البسالة والنجدة " ..

ويهنئ السيد محمد شهاب الدين إسماعيل (١٨٦١ م) أحد الأمراء بختان ابنه فيقول :

ياصاح قم فاروكؤوسك واصطبح ∴ وانهض إلى إيقــاظ جـفن نائم
وأنظر إلى إشـراق رونق بهـجـة ∴ يزهو بأشـبـال بدت كـضـراغم
وإذا أتى مـوسى التـــختن غـائظا ∴ فـأعــدهم منه بموســى الكاظم
فلقـد بدا فـرح الخـتـان مبـشـرا ∴ لقـدوم باهى عـــرســهم بولائم
فـرح به نـثـر الجـمـان تـكرمـا ∴ والفخـر شمر عن يد ومـعاصم
فـــتــحت بـه أبواب كل مطـالب ∴ لبلوغ غـــايات الكمـــال خـواتم

الطفولـــة

- ملاعبة الأطفال
- أدب الأطفال
- التعليم والحكمة

ملاعبة الأطفـال

بعد أشهر قلائل يشتد عود الطفل وتتضح قسماته وكلما شاهد الوالدان ازدياد نمو ولدهما زادا اغتباطهما وسرورهما ولا ينفكان عن مناغاته ومداعبته برقيق الكلمات وعذب الأغنيات .

* قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": من كان له صبى فليستصب له ": ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير مثل فى العطف على الصغار والاستصباء لهم فمن استصبائه عليه السلام أنه كان ساجدا فركب الحسن والحسين عليهما السلام ظهره فقال عمر رضى الله عنه ": نعم المطى مطيكما ": فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم الراكبان هما .. وقد أنشد السيد الحميرى فى ذلك :

أتى حسن والحسين النبى	∴	وقد جلسا يلعبان
فقد أهما ثم حياهما	∴	وكانا لديه بذاك المكان
فراحا وتحتاهما عاتقاه	∴	فنعم المطية والراكبان
وليدان أمهما برة	∴	حصان مطهرة للحصان
وشيخهما أبن أبى طالب	∴	فنعم الوليدان والوالدان

ومن استصبائه لأطفال المسلمين ما روته أم خالد بن سعيد عن نفسها فقالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليَّ قميص أصفر فقال صلى الله عليه وسلم : سنه سنه (وهى بالحبشية حسنة) . قالت فذهبت ألعب بخاتم النبوة فزبرنى أبى . قال رسول الله صلى الله وعليه وسلم : " أبلى وأخلقى ، ثم أبلى وأخلقى ، ثم أبلى وأخلقى ".. وكان عليه السلام لا يستنكف أن يداعب الأطفال بما يجرى على ألسنتهم من أحجيه وألغاز . فعن أنس بن مالك أنه قال : " كان النبى يخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير : ياأبا عمير ما فعل النغير "..

وكان بكاء الطفل مما يشق على نفسه صلى الله عليه وسلم ويؤلمه غاية الإيلام فكان يسرع بإنهاء ما هو مشغول به حتى ولو كان صلاة وقد ضرب لنا مثلاً فى ذلك فقال : " إنى لأدخل فى الصلاة فأريد إطالتها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز من شدة وجد أمه من بكائه "..

* * *

ومن الناس من صدئت قلوبهم فلا يستريحون لمداعبة الأطفال وملاعبتهم وترقيصهم وتقبيلهم فهم يعدون ذلك نزولاً عن مقام الرجولة وكرامتها .. وكأن الرجولة صنو للجفاء ونضوب الحنان على الأبناء ومن هذا الصنف أعرابى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : تقبلون الصبيان فما نقبلهم – فرد عليه الرسول بقوله :

أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟

فالفطرة السليمة لا تبخل بالتعبير عن طبيعتها ، ومن طبيعتها الرحمة والحنان ومداعبة الوِلْدَان .. ويختلف الناس فى هذا الشأن .. فقد كان أعرابى يرقص ابنه وهو يقول :

يارب رب مـــالك بارك فـــيــه ∴ بارك لمن يـحـبـه ويُدْنـيـه
ذكـــرني لما نظرت فـي فـيــه ∴ أجـزاء نـور غـربت أواخـيـه
والوجـه لما أشـرقـت نواحـيـه ∴ دينـار عين بـيــد تـبـــريه

وكل الزبير يرقص ابناله وهو ينشد :

أبيض من آل أبى عقيق ∴ مبارك من ولد الصديق
ألذه كما ألذ ريقى

وكانت منفوسة بنت زيد الخيل ترقص ولدها وهى تقول :

أشبه أخى وأشبهن أباكا ∴ أما أبى فلن تنال ذاكا
تقصر عن مناله يداكا

ومن قول فاطمة بنت أسد وهى ترقص ولدها عقيل بن أبى طالب :

أنت تكون ماجد نبيل ∴ إذا تهب شمال بليل

ومن قول أم الفضل بنت الحارث وهى ترقص ابنها عبدالله بن عباس :

ثكلت نفسى وثكلت بكرى ∴ أن لم يسد فهراً وغير فهر
بالحسب الوافى وبذل الوفر

وكان مداعبة من هاتيك المداعبات أو أغنية من هاتيك الأغنيات إذا أجيز لنا أن نسميها أغنيات تحمل صدى الأمنيات التى تساور الأم أو الأب فهى إيقاع للبواعث الكامنة فى وجدان كل منهم تغنيها أو يغنيها فكأنما يغازل المستقبل ويستحلفه أن يكون زاهراً مشرقا مليئا بالخير والرفاهية ...

تغنيها أو يغنيها فكأنما ينشد للحياة نشيداً يتغنى به معه كل رمز من رموزها وشارة من شاراتها ...

فمن المداعبات ما يتشح بوشاح التهنئة والابتهال إلى الله أن يهب

الغلام حظاً جميلاً من حظوظ الدنيا . وذلك لما قد يراه الشاعر من أمارات الفراهة والزكانة التى تلوح على محيا الطفل الصغير .. وذلك مالمحته الشاعرة الأندلسية عائشة القرطبية حين دخلت على المظفر بن المنصور بن أبى عامر وبين يديه ولد ، فارتجلت :

أراك الله فيه ما تريد ∴ ولا برحت معاليه تزيد
فقد دلت مخايله على ما ∴ تؤمله وطالعه السعيد
تشوقت الجياد له وهزالحسـ ∴ ـسام هوى وأشرقت البنود
وكيف يخيب شبل قد نمته ∴ إلى العليا ضراغمه أسود
فسوف تراه بدراً فى سماء ∴ من العليا كواكبه الجنود
فأنتم آل عامر خير آل ∴ زكا الأبناء منكم والجدود
وليدكم لدى رأى كشيخ ∴ وشيخكم لدى حرب وليد

ومن الأغنيات ما يحمل سمات الجد والرصانة : فالأم إذ تغنى لطفلها فكأنما تناجي المستقبل وتبثه أشجانها وأتراحها وتستودعه أحلامها وأمانيها التى تتشوف إليها بعينى وليدها .. هكذا جاءت قصيدة " أغنية أم " التى صاغها هاشم الرفاعى فى أعقاب أحداث العراق سنة ١٩٥٩ .. وقد جاء فيها :

نم ياصغيرى إن هذا المجد يحرسه الرجاء
من مقلة سهرت لآلام تثور مع المساء
فأصوغها لحنا مقاطعة تأجج فى الدماء
أشدو بأغنيتى الحزينة ثم يغلبنى البكاء
وأمد كفى للسماء لأستحث خطا السماء
نم لا تشاركنى المرارة والمحن
فلسوف أرضعك الجراح مع اللبن
حتى أنال على يديك مُنىً وهبت لها الحياة
يامن رأى الدنيا ولكن لن يري فيها أباه

إلى أن تقول :

لا ترحم الجـانى إذا ظفـرت به يـومـا يداك
فـهـو الذى جلب الشـقـاء لنا ولم يرحم أباك
كم كان يهوى أن يعـيش لكى يظلل فى حماك
فـاطلب عدوك لا يفـتك ترح فـؤاداً قد رعـاك
هذى مناى وأمنـيـات أبيك فـاجـعلـهـا مناك

ويكون الطفل هو المستقبل الذى يبثه الوالد أشجانه وأحزانه التى هى هموم عصره وقضاياه .. بل إنه لينظر إليه بعينى الأمل المشوب بالحب والإشفاق . وهذا ما صوره الشاعر فاروق جويدة أجمل تصوير وأعمقه فى نغم يتسم بالرقة والعذوبة والحنان .

فلا نقولن إن الشاعر يسقط أحزانه وأحزان وطنه وعصره على طفلته لا نقولن ذلك لأن الأمر أسمي من عمليات الإسقاط النفسى فى بواعثها وأهدافها .. إنه يناجي المستقبل فى طفولة ابنته ، ويناجى طفولة ابنته فى أحلام الغد فكانت قصيدته ": سلوان لا تحزنى .. إلى طفلتى الصغيرة سلوان "

يقول الشاعر :

سلوان لا تحـزنى إن خـاننى الأجل .·. مـا بين جـرح وجـرح ينبت الأملُ
لا تحزنى يا ابنتى إن ضاق بى زمنى .·. إن الخطايا بدمع الطـهر تغـتـسلُ
قـد يصبح العـمـر أحلامـا نطاردها .·. تجرى ونجـرى وتدمينا ولا نصل

سلـوان لا تسـألينى عـن حكايتـنا .·. مـاذا فعلـنا وماذا ويحـهم فـعلوا
قد ضيعوا العـمر يا للعمر لو جنحت .·. منا الحـيـاة وأفـتـى من به خـبلُ
عـمـر ثقـيل بـكأس الحـزن جـرعنا .·. كيف الهروب وقد تاهت بنا الحيل

الحزن فى القلب فى الأعماق فى دمنا .·. يأس طويل فكيف الجرح يندمل
أيامنا لم تزل بالوهم تخدعنا .·. قبر من الخوف يطوينا ونحتمل
لا تسأليني لماذا الحزن ضيعنا .·. ولتسألى الحزن هل ضاقت به السبل

* * *

إن ضاقت الأرض بالأحلام فى وطنى .·. مازال فى الأفق ضوء الحلم يكتملُ
هذى الجماجم أزهار سيحملها .·. عمر جديد لمن عاشوا ومن رحلوا
هذي الدماء ستروى أرضنا أملا .·. قد يخطئ الدهر عنوانى ولا أصل

إن ضاق منى زمانى لن أعاتبه .·. هل يعشق السفح من أحلامه الجبلُ
سلوان يافرحة فى الأرض تحملنى .·. فى ضوء عينيك لا يأس ولا ملل
عيناك ياواحتى عمر أعانقه .·. إن ضاقت الأرض وإنسابت بنا المقل

ضيعت عمرى أغنى الحب فى زمن .·. شيئان ماتا عليه الحب والأمل
ضيعت عمرى أبيع الحلم فى وطن .·. شيئان عاشا عليه الزيف والدجل
كم راودتنى بحار البعد فى خجل .·. لا أستطيع بعادا كيف أحتمل

مازال للحب بيت فى ضمائرنا .·. ما أجمل النار تخبو ثم تشتعل
لا تفزعى يا ابنتى ولتضحكى أبدا .·. كم طال ليل وعند الصبح يرتحل
مازال فى خاطرى حلم يراودنى .·. أن يرجع الصبح والأطيار والغزل

سلوانى يا طفلتى لا تحزنى أبداً .·. إن الطيور بضوء الفجر تكتحل
مازلت طيرا يغنى الحب فى أمل .·. قد يمنح الحب مالا يمنح الأجل

وليس من اللازب أن يكون المداعب أباً أو أما أو قريبا فقد يكون صديقا للأسرة شاعت زوراته لها أن يكون صديقا لطفلها كتلك الصداقة التى نشأت بين العقاد وصديقه الطفل موفق جلال وكان فى الشهر الثامن عشر من عمره فكتب إليه قصيدة بعنوان ": إلى صديقى موفق جلال " يقول فيها :

يا صـــاحـبى يا أصــغـــر .·. الأصـــحــــاب فى سن وقـــد
يا شـــاغـــلا من خـــيـــر الأ .·. مـــــال والأحــــــلام عندى
مـــا ليس يشـــغـلـه كـبـــا .·. ر القـــوم فى قـــرب وبـعــد
أنا عـــــالم أن لـست تهــــو .·. ى صـــحـبـتى إلا لـقـصـــد
إلا لحـلـــوى فـــى يــدى .·. أو لعـــبـــة أوهــز مـــهـــد
أو صـــفـــحـــة تعـــدو إلى .·. تمزيقـــهـــا كـــالمســتــعـــد
أنا عــــالم مـــا فــيـك من .·. مكـر ونســـيــان لعــهـــد
لـكن أوفـى الأوفــــيــــــا .·. ء وأين هم فـى كل عـــهـــد ؟
لا يـبـلـغـــــون مــــداك فى .·. شـــوقى وإيثـــارى وحـمـــدى
وقــبـول مـــا تقــضــيـــه من .·. عطـف ومن تـيــــه وصـــد
والـعـض مـــن تـلـك الـثـــنـا .·. يا الـناشطات إلـى الـتـعـــدى
وطويـل حـــــقـــــد لا يـطو .·. ل هنيـهـــة وقـصـيـر حـقـد
وفـــنــــون هـــزل لا تـــزا .·. ل تجــد فـــيـــهـــا أى جـد
وعـــنــــاد رأى لا يـلــيـــــ .·. ن ولا يكـف عن الـتـــحـــدى
وتغـــــاضـب يجــــدى إذا .·. كـــان الـتـــوسل ليس يجـدى
أنــا عـــــــالــم هـذا وذاك .·. بالـغ فى الـعلم جــــهـــــدى
لكـن أراك ســـــحـــرتنى .·. فـــــــإذا بـعـلمـى زاد ودى
عش يـا مــــوفق دائم الـتــ .·. ـــوفـيق مـقـــرونا بسـعـد
مـــتـــمـــتـــعـــا بحنان أم .·. بـرة وأب وجـــــــــــــــد
حـتي نراك تشق مـضـمـا .·. ر الـدهاء بـغـــيــــر نـد
جـــهـــد الحكاية أن تـد .·. ارى فى غـد مـا أنت مـبـدى

* * *

ألا ما أحلى أيام الطفولة وأبهجها .. قالت فتاة تتغنى بأيام طفولتها:

ألا لا أبالى مــــا دمت جـــاريا .·. وما دمت أسـعى لا أبالى إزاريا
ومـا دمت أسعى بين أم عـزيزة .·. وبين أب بر يـحب جـمـــاليـا
ومر جوارى الحى من كل وجهة .·. لألعب إن اللعب كـان شـفـائيا

الطفولة البريئة هى التى أبكت عمر بن الخطاب وذلك حين استعطفه الشاعر الحطيئة وقد أحضره من سجنه للمحاكمة فى أمر الزبرقان ؛ فقال لعمر رضوان الله عليه :

مـاذا تقـول لأفـراخ بذى مـرخ ∴ زُغْبِ الحواصل لامـاء ولا شجرُ
ألقيت كـاسبهم فى قعـر مظلمة ∴ فاغـفر عليك سلام الله يا عـمر
أنت الإمام الذى من بـعد صاحبه ∴ ألقت إليك مقـاليد النهى البـشر
لم يؤثروك بهـا إذ قـدموك لهـا ∴ لكن لأنفـسهـم كانت بهـا الأثر
فامنن على صبـية بالرمل مسكنهم ∴ بين الأباطح تغـشاهم بهـا القرر

إذن فـمـا أحرى المجـتـمع أن ينقـذ البـائسين المسـاكين من الأطفـال من البؤس والضيـاع .. وها هو ذا الشاعر حافظ ابراهيم يدعو إلى العطف على أولئك الأطفال فيقول :

انقذوا الطفل إن فى شـقوة الطف ∴ ـل عـناء لـنا عـلى كـل حـــال
إن يعش بائـسـا ولم يطوه الـبـؤ ∴ س يعش نكبـة عـلى الأجـيــال
رب بؤس يخــبث الـنفس حــتى ∴ يطرح المرء فى مـهـاوي الضــلال
أنقــذوه فـــربمـا كـــان فــيـــه ∴ مـصـلح أو مـغـــامـر لا يبــالى
ربما كـــان فى طمـــرية عـــزم ∴ ذو مـــضـــاء يدك شـم الجـبـــال
رب سـر قـد حل جسـم صـغـيـر ∴ وتأبـى على شـــديد المحـــال

إن الطفولة هى فجر الحياة .. وسر الحياة .. وأمل الحياة ..

يقـول عـبد الرحـمن شكرى فى قـصـيدة بعنوان " الطفل " تصـور هذه المعانى الإنسانية :

من عالم الروح وهو الخلد والقدم ∴ وكان بالأمس يطوى جسمه العدم
سر الحيـاة وسر الموت ما برحت ∴ تطـويه عـن فكرهـمت بـه الظـلم
يطل من عـــينيـــه مـعــنى يزاوله ∴ مـعنى التـفـهم لم ترصـد له كلم
وحـيـرة هى بعض الـلب يبـرزها ∴ صـفـو من العين لا خـب فـينكتم
فـــلا عـــداء ولا مكـر ولا حـــيل ∴ ولا حـقــود ولا غـدر ولا جـــرم
حــيث الحيـاة كـبـيت الله طاهرة ∴ لدى الطفـولة وهى المعـبد الحـرم

أدب الأطفال

ومما لا ريب فيه أن الطفولة هى صانعة المستقبل وعماد الاستمرار الحضارى للأمة .. ومن أجل هذا كان لابد من أن ينشأ الأطفال ويربون على القيم الأخلاقية والسلوكية وقبل كل شئ القيم الدينية بما يمكنهم من الإسهام الإيجابى فى بناء وطنهم والارتقاء به والذود عنه إذا ما عدت عليه نزوات الحاقدين والمتربصين بالأمة العربية .. ومن هنا أصبح أدب الأطفال تدعمه الدراسات النفسية فرعا بل قطاعاً له وزنه وقيمته وخطورته فى الأدب العربى على صورة وأبعاد لم يشهدها من قبل ..

* ففى الشعر أصبحت هناك القصيدة الفردية والأغنية الجماعية والشعر المسرحى .

* وفى القصة ازدهرت كتابة القصص التى تعالج الأساطير العربية ، والأساطير العالمية .. والتى تعالج المشكلات الاجتماعية والأخلاقية .. والتى تعالج البطولات العربية القديمة والمعاصرة .. وإلى جانب هذا فقد ازدهرت كتابة القصص العلمية وقصص الخيال العلمى وكذلك قصص حياة المفكرين والعلماء .

* يتاصر فى النهضة بأدب الأطفال كل من الكتاب ، والمجلة والراديو والتليفزيون والمسرح .. ولكل منها طرائفة ومقوماته .

ولسوف نسوق الأمثلة التى تؤكد إزدهار أدب الأطفال وتنوع مجالاته وأنساقه ..

فمن القصائد الفردية قصيدة ": أوصى[1] الأطفال " للشاعر الأردنى يوسف حمدان :

أوصـــيكم أوصـى الأطفـــال ∴ من أجل صـــلاح الأجــيـــالْ
أن لا يهـــمل طفل درســـه ∴ أن تتـقـــانـوا فى الأعـــمـالْ
أن لا يحـنـى طفـل رأســـه ∴ أن تتــســامـوا كـــالأبطال
أوصـــيكم بالوطن الـغـــالى ∴ حـب الـوطـن علـيـنـا واجب
من أجـل الأوطان تـضــحـى ∴ من أجـل الأوطان نـحـــارب
أوصـــيكم أن تقـفـــوا صـفـــا ∴ مـتـحـديـن بوجـه الغـــاضب
أوصـــيكم بالخلق الـعـــالى ∴ فـجـمـــال الإنســـان مـناقب
مـــا وصـلت أمم لمعـــالى ∴ إلا بصـــلاح الأجـــيـــال

* * *

ومن الأغانى الجماعية قصيدة ": ياأطفال[2] بلادى " للشاعر يوسف حمدان :

يـاأطـفـــــال بـلادى ∴ يـــا أزهـــار ربـــاهـــا
غنـوا فى الأعـــيــــاد ∴ غنـوا مـــا أحـــلاهـا
ســتــغنـى الأطيـــار ∴ مـــعكـم والأشــجـــار
وســتــجــري الأنهـــار ∴ فــيــهـــا ليل نـهـــار
غـنـوا لـلأجـــــداد ∴ غنـوا للأمـــجـــاد
غـنـوا الـروح فـــداهـا ∴ مـــا كـنـا لولاهـا
يـا أطـفـــال بـلادى ∴ يافـــجـــر الحـــرية

* * *

ومن القصص الأسطورية التى صيغت شعراً قصة " فيروز وعين القمر" التى وردت فى كتاب ": كليلة ودمنة "..

---

١ - مجلة المنهل السعودية ، عدد أكتوبر ١٩٨٦ .

٢ - مجلة المنهل السعودية ، عدد نوفمبر ١٩٨٦ .

قال الشاعر محمد فريد أبو سعدة فى قصته الشعرية " فيروز(١) وعين القمر :

اللـيلة كـــانت مـــقـــمــرة
فـــــــأتـــاهـا الحـــل
انطـلق الأرنب حـــتــى أعلى الـتل
نـادى : يـا ملـك الـفـــيـلـة
أرسـلنـى القـــمــــر إليك
ضـــحك الـفـــيـل الأعظـم
قـــال بـصـوت المـغـــرور
قـل مــــــا عـنـدك
قـــــــال الأرنـب
الـقـــمــــر قـــوى وبهـى
وأنـا مـــــأمـــــور
القـمــر يقـول : احـذر غـضـبى
إن كنـت قـويـاً بين دواب الأرض
فـــلا تـغـــتـــر علي
لا تشـرب من مـائى وتعكر عـينى
إنى أنذرك فإن خالفت ستفقد عينك
وســتــفـــقـــد نفـسك
ضـــحك الـفـــيـل الأعظـم
ضــحـكت بـاقى الـفـــيلـه
قال الأرنب : إن كنت تشك تعال معى

* * *

وتمثل للمسرحية الشعرية بمسرحية " سر[١] الفنان " كتبها الشاعر أحمد مصطفى حافظ وهى من منظرين ونكتفى منها بالمنظر الأول :

---

١ - نفس المرجع عدد أغسطس ١٩٨٦ ، ١ - المرجع السابق عدد يناير ١٩٨٧

المنظر الأول

يرفع الستار عن منظر حفل بهيج يموج ببعض المدعوين والأطفال وهم يتهيأون لتناول ما لذ وطاب بدعوة من أحد الوجهاء .. ويبدو أحد الفنانين – وهو موسيقار رقيق الحال – كما يبدو من هيئته وهو يعزف لهم على آلة الكمان .. ويقف رب الدار بعد إكتمال حضور المدعوين قائلا :

شرفتم دارى ياسادة ∴ وأتيتم توا كالعادة

البشر يحل بمقدمكم ∴ حققتم أملى وزياده

وتضع ربة البيت التورته وهى تقول :

أهلا .. أهلا .. يالهنائى ∴ عُقْبىَ لكم فى الأبناء

فيقول مدعو :

عفوا .. لا شكر على واجب ∴ مع هذى الحلوى نتجاوب

يضحك الجميع .. وتطفأ الأنوار وهم يرددون النشيد المألوف

H appy birthday to you عام سعيد ياربهام

بينما تبرز على خشبة المسرح مجموعة من الأطفال يرددون النشيد التالى :

نحن أزهار الخميله ∴ نحن أوفياء ظليله

حفناعيد الجميله ∴ بالمسرات الجليله

نحن أزهار الخميله

صاغنا عهد الصغير ∴ مثل حبات الدرر

وسنعد للكبر ∴ خير ذخر يدخر

نحن أزهار الخميله

نحن ربات الخدور ∴ فى غد مثل البدور

فى حمى الله القدير ∴ للعلا .. نرقى نطير

نحن أزهار الخميله

وأخي .. فجر الرجوله .·. بمعانيها النبيـــله
منكمو نلقى الوسيـله .·. للمعالى والبطولـه
نحن أزهار الخميله

(تصفيق) - ثم يقف مدعو فيقول :

من منبع الحب من أعماق أعماقى .·. لا من تـفـنن أقــــلامـى وأوراقى
ينساب شـعرى كأنفاس الربى سـحرا .·. مـعطرا بالـشـذى .. أرجـاء آفـاقى
حتى لأحـسب أن الفجـر صـوره .·. فى لوحـــة فـذة .. تزهو بـإشـراق
عيـد الحبـيبـة وافى بعد لهفـتنا .·. شـــوقـا إليـه يوافـينا بإغــداق
والطفل أغـرودة للـناس كلهـمـو .·. يبقى كنبع سرى .. بالصـفو رقراق

يصفق الجميع مرة ثانية .. وبعد لحظة صمت قصيرة تصبح ربة البيت فجأة قائلة وهى تتفقد العقد الذى كان يزين جيدها منذ بداية الحفل :

عقدى ؟ .. عقدى .. أين العقد ؟

أحد المدعوين (مندهشا) عجبا .. هل هزل أم جد ؟

آخر : قد كان بجيدك لى يبدو .

آخر : من منا اللص .. من الوغد ؟

الزوج (رب الدار) : العقد الغالى يا هند ؟

الزوجة (بحسرة) : هو زين عقودى ياسعد .

يتهـامس المدعـوون فيـمـا بينهم بعد أن تكهرب الجـو .. بينما تقـوم الزوجة بالبـحث هنا وهناك فى جوانب المسرح وبعد فـتـرة وجيـزة يقـول أحد المدعوين :

.·.

نحن الأربعة هنا ..فينا .·. من عكر صفوه ليالينــا
آخر : مادام البحث بلا جدوى .·. فلنكشف أسرار البلـوى
آخر : كل سيفتش ياســـــادة .·. كى نُظهر من فقد رشاده
والحر يوافق لا يخشى تفتيشـــا يشمل أنـداده

ويبدأ المدعوون فى تفتيش جيوب وصدور بعضهم البعض - إلى أن يجئ الدور على الفنان فى نهاية المطاف .. لقد كف عن العزف .. وحينما يحاول أحدهم تفتيشه يمتنع ويدفعه بيديه ويرفض التفتيش بإصرار فيقول له :

هل أنت إذن من غافلنا .·. بدناءة فعل .. أحرجنا ؟

(الفنان يطرق ببصره إلى الأرض بجمود دون أن ينبس ببنت شفة) فيقول مدعو آخر :

أخزاك الله .. أفنان .. وبوجه آخر ثُعبان ؟

آخر : سنفوض أمرك للشرطة : كى تكشف عن هذى الخطه

" ويتشاور الجميع فى الأمر - مرة أخرى - فيما بينهم همسا بينما يتهاوى الفنان جالساً على أحد المقاعد وتقول ربة البيت محنقة :

بل يكفى ما قد أدركنا .·. من غدر ولترحل عنا

ما عاش دواما يتبعه .·. عار يشقيه ولن يهنا

ماعدت أريد العقد فلا تهتموا

الزوج (مكملاً بانفعال .. للفنان) :

من حظك أنك فى بيتى .·. هيا غادرنا وأرحنا

لو كنت بغير جوانبه .·. لتغير ما تلقى منا

العقد متاعِ لزوال .·. واللعنة تبقى ..لا تفنى

(وفجأة يندفع أحد الخدم إلى خشبة المسرح وهو يصيح بانفعال شديد ملوحاً بالعقد المفقود)

العقد بخير ياستى قد ظهر بشق فى البيت

السيدة مبهوتة : قد سقط العقد ولم أشعر ؟ من جيدى سهوا ؟ .. من يعذر ؟

زوجها متألما : يا قوم ظلمنا الفنانا

آه آه .. ما أقسانا

" يتلفت الجميع ناحية الركن بأقصى المسرح حيث يوجد المقعد الذى كان يجلس عليه الفنان فلا يرونه ويبدو أنه قد انتهز فرصة إنشغالهم مع الخادم وانسل خارجاً من بينهم دون أن يشعر به أحد "

الزوج (بتعجب) : ما السر إذن يا إخوانى فى موقف هذا الفنان

مدعو لكأنى أشهد فى مسرح مأساة تبكى أو تفرح

آخر بل قل تمثيل للقدر قد فاق خيالات البشر

آخر (للزوج) : سأقوم أنا عنكم .. فاهنأ بتحرى الأمر .. ولن أهدأ

" ستار "

* * *

ومما يجدر بالمفكرين العرب أن يضعوه نصب أعينهم وهم يقدمون لأطفالهم من صنوف الفكر والثقافة ما يقوى إيمانهم بربهم ووطنهم وأمتهم - الخطة التربوية التى وضعتها الصهيونية لتنشئة أطفال إسرائيل ذلك لأن الأدب المقدم للطفل الصهيونى يتميز فى طبعاته باللغة العبرية بهجمة شرسة عنيفة ضد العرب فى كافة النواحى الفكرية والعقلية والنفسية والفيزيائية .. يقول الأستاذ قحطان الطويل فى محاضرة له عن التمييز العنصرى فى الأرض المحتلة ": إن[1] البناء الفنى للأدب الصهيونى إنما

١ - مجلة المنهل السعودية عدد أغسطس ١٩٨٦

يستخدم بالطبع ليخضع إلى حد بعيد لمقتضيات العنصرية الصهيونية التوسعية وإذا كان هذا القول ينطبق على الكتب الأدبية والفكرية عامة فإنه يكون أشد خطرا حين يكون الأدب موجهاً للأطفال " .. وفى دراسة للأستاذ محمد الظاهر نشرتها مجلة الأقلام العراقية [العدد التاسع - السنة الرابعة عشرة - حزيران ١٩٧٩ (عدد خاص فى الأدب الصهيونى] .. يوضح الكاتب أن هناك كتبا موجهة للأطفال اليهود ومكتوبة باللغة العبرية فقط ليقرأها الأطفال اليهود دون غيرهم من الأطفال وهى منتشرة بمئات الآلاف من النسخ فى المكتبات المحلية والعامة ومكتبات المدارس لتكون فى متناول الطفل اليهودى . وهى تركز دائما على موضوع واحد ألا وهو تصوير الأطفال اليهود بأنهمُ أطفال جبابرة عظماء لا يقهرون يهزمون العرب الأغبياء بسهولة ويسر هؤلاء المغفلين الذين يريدون أن يقتلونا من أجل المتعة الذاتية فقط .."

وقد بدأت هذه الكتابات منذ خمسين سنة حين قام متطرف إسرائيلى يدعى بيجال ماسيتون بإصدار كتاب خاص للأطفال أسماه " عصابة حصبمة " وهى عصابة سرية من الأطفال اليهود تستطيع إلحاق الهزيمة بإعدائها من خلال مغامرات كثيرة تنتهى دائما بنفس النتيجة ..

ثم ظهر جيل آخر من الكتاب الصهاينة استفادوا من تجربة وسخرية ماسيتون هذا وساروا على نهجه فى التأليف للأطفال .. ولكن أكثر الكتب رواجا فى الوقت الحاضر والتى استطاعت تحقيق أكبر انتشار هى كتب اثنين من المؤلفين الأول هو " هارى لاين " الذى حارب خلال عام ١٩٤٨ فى صفوف البالماخ وبعد إنشاء الكيان الصهيونى خدم فى قيادة الأركان العامة ، والكاتب الثانى هو " شراجا أغافنى " أحد أعضاء مقاتلى الحرية فى عصابة " شترن " ، كتب العديد من الكتب المسلسلة منها " الجواسيس الشباب " ، " والرياضيون الشباب " ، وقصص من التوراة للشباب " ..

ومما قاله الكاتب الأول ": هارى لين ": إننى أريد أن أخلف جيلا ينتقم لى ويأخذ بثأرى .. هذا الجيل هو مئات الآلاف من القراء الأطفال الذين يتهافتون على قراءة كتبى " .. وقال الكاتب الثانى ": وحين تكون إسرائيليا يجب أن تتحمل مسئولية عظيمة فنحن شعب الأنبياء .. ويجب أن تكون مثالا ونموذجا وإن على الطفل أن يكون مثل بطل القصة تماما " ..

ولباب هذه الكتب والقصص هو العمل على إظهار العربى بأنه الإنسان اللا أخلاقى .. التافه الحقير .. البشع المنظر .. غير المتعلم .. السارق الكاذب .. الغبى الذى يخسر دائما أمام اليهودى الذكى العظيم الذى لا يقهر "..

وفى مواجهة هذا التحدى الصيهونى ألفت السيدة روضة الفرخ هدهد (الأردن) مجموعة من قصص البطولة للأطفال ليكونوا على وعى بحقيقة عدوهم .. وجهاد آبائهم .. من هذه الكتب :

. الكتاب الأول : عن عز الدين القسام الذى أسس العمل العسكرى المنظم فى فلسطين ضد الإنجليز والذى نبه لخطر الهجرة اليهودية إليها .. كان رجلا سورى المولد أزهرى الدراسة استشهد فى اشتباك مع الإنجليز ..

. الكتاب الثانى : عنوانه ": سرالقنابل الموقوتة وهو يرمز إلى عنصر العمال والفلاحين وقود الثورة وقاعدتها الأساسية .. يكون البطل فلاحا ..

. الكتاب الثالث : عنوانه ": قافلة الفداء " وقد اتخذت محمد حمد الحنيطى رمزاً لوحدة النضال بين الشعب العربى فى الأردن وفلسطين ..

. الكتاب الرابع : عنوانه ": الزمن الحزين فى ديرياسين " وهو يستعرض بطولة نسائية بالإضافة إلى دفاع أهل القرية ..

. الكتاب الخامس : وعنوانه : " رحلة نضال " وهو يمثل موقف البطل حسن سلامة ، فيه رمز الرجل الفلسطينى البسيط فى كسارة للحجارة فى جبال فلسطين .. يترك عمله اليومى الذى يقتات منه وينتظم مع الثوار لمحاربة الإنجليز ..

التعليم والحكمة

ويبلغ الوليد السن التى تحتم على أهله أن يبعثوا به إلى من يعلمه ويقوم على تربيته وتأديبه . والتعليم فريضة أوجبها الإسلام على الرجل والمرأة . قال سبحانه :« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » (٩ سورة الزمر). وقال سبحانه :« إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »(٤ سورة الرعد).

ولقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين على ضرورة التعليم وطلب العلم فى مواطنه وإن بعدت الشقة فقال عليه السلام :« طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال كذلك :« اطلبوا العلم ولو بالصين ». ولذلك فإنه عليه السلام أوجب على الوالد أن يعلم ابنه فقال : «من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه ».

وقال عليه السلام : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

وكان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه يقول عن تربية الأبناء :«علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم أن يثبواعلى الخيل وثبا ورووهم ما يجمل من الشعر ».

ولا يختلف ما ينشده المصلحون لأبناء الأمة فى تعليمهم بين عصر وآخر فحسب بل يختلف كذلك باختلاف مراتب الآباء ومشاربهم وإن كانت

غاية كل منهم تحمل طابع العصر وأهدافه . فعتبة بن أبى سفيان أوصى عبد الصمد مؤدب ولده بقوله :« ليكن إصلاحك بنى إصلاحك نفسك فإن عيوبهم معقودة بعيبك فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح ما استقبحت ، وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء ، وتهددهم بى وأدبهم دونى . وكن لهم كالطبيب الذى لايعجل بالدواء حتى يعرف الداء ، ولاتتكلن على عذر منى فإنى قد اتكلت على كفاية منك » فما رأى علماء التربية فى هذا التوجيه التربوى الأبوى ؟ وما رأى فقهاء البلاغة فى هذه الصياغة ؟

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده :« علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن وجنبهم السفلة فإنهم أسوأ الناس رعة وأقلهم أدبا وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة . واحف شعورهم تغلظ رقابهم وأطعمهم اللحم يقووا . علمهم الشعر يمجدوا و ينجدوا . ومرهم أن يستاكوا عرضا ويمصوا الماء مصا ولا يعبوه عبا . وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك ستر لايعلم به أحد من الحاشية . فيهونوا عليه " ..

أما الحجاج بن يوسف فإنه قال : «علم ولدى السباحة قبل الكتابة»..

ومما نلاحظه اختلاف مناهج تربية الأولاد وتعليمهم عند كبار المربين والمفكرين العرب ، فابن التوأم يقول :« علم ابنك الحساب قبل الكتاب فإن الحساب أكسب من الكتاب ومؤونة تعلمه أيسر ووجوه منافعه أكثر . ». وجاء فى كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه . « ويعود الصبى المشى والحركة والركوب والرياضة . فمن اتفق له فى الصبا أن يربى على أدب الشريعة ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها ثم ينظر بعد ذلك فى كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن فى نفسه بالبراهين . ثم ينظر فى الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان ثم يتدرج فى منازل العلوم فهو السعيد الكامل » .

ونحن نتلقى الحكمة من الحكماء . ونتلقى الحكمة من الأنبياء .ونتلقى الحكمة من الأمهات والآباء .

وتختلف الحكمة بين الآباء باختلاف مراتبهم فى الحياة وغايتهم منها فما يعظ به السياسى ابنه غير ما يعظ به رجل الحرب . غير ما يعظ به رجل الدولة . وما ينصح به رجل الأعمال الثرى غير ما ينصح به البائس الفقير . وما يوصي به الأب وهوعلى فراش الموت غير ماتوصى به الأم .

* لقد وصى إبراهيم ويعقوب عليهما السلام أ بناء هما:

قال تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » (١٣٢ سورة البقرة)

* ووصى لقمان ابنه فقال سبحانه :« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » (١٣سورة لقمان) .

يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور (١٧ سورة لقمان)

ولاتصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختال فخور (١٨ سورة لقمان)

واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير (١٩ سورة لقمان)

من وصايا رجل الحرب

أ - متى يترك الميدان ؟

فمن وصية النعمان بن ثواب العبدى لابنه وكان صاحب حرب :

« يابنى ، إن الصارم ينبو والجواد يكبو والأثر يعفو ، فإذا شهدت حربا فرأيت نارها تسعر وبطلها يخطر وبحرها يزخر وضعيفها ينصر وجبانها يجسر فأقلل المكث فإن الفرار غير عار إذا لم تكن طالب ثأر » .

ب - كيف يقاتل ؟

من وصية الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل :« تزول الجبال ولاتزل ، عض على ناجذك أعر الله جمجمتك ، تدْ فى الأرض قدمك ، ارم ببصرك أقصى القوم غض بصرك واعلم أن النصر مِن عند الله سبحانه »

ج - حمية القتال

قالت الخنساء تحرض أبناء ها الأربعة على خوض حرب القادسية :

« يابنى ! إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلاهو إنكم لبنورجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما هجنت حسبكم ولاغير نسبكم . واعلمواأن الدار الآخرة خير من الفانية . اصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها وحمى وطيسها جالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلود والمقامة ».

من وصايا رجال السياسة

أ - ملك

عن المدائنى قال : « كتب المنذر بن المنذر لماحارب بالشام لابنه النعمان يوصيه : إياك واطراح الإخوان وأطراف المعرفة وإياك وملاحاة الملوك وممازحة السفيه وعليك بطول الخلوة والإكثار من السمر والبس من القشر مايزينك فى نفسك ومروءتك . واعلم أن جماع الخير كله الحياء فعليك به وتواضع فى نفسك وانخدع فى مالك واعلم أن السكوت عن الأمر الذى لايعنيك خير من الكلام فإذا اضطررت فتحر الصدق والإيجاز تسلم إن شاء الله » .

رجل دولة

أوصى[1] عبد الملك بن صالح العباسى بوصية جاء فيها :« أى بنى ، احلم فإن من حلم ساد ومن تفهم ازداد ، والق أهل الخير فإن لقاءهم عمارة للقلوب ، ولاتجمح بك مطايا اللجاج ، ومنك من أعتبك والصاحب المناسب لك ، والصبر على المكروه يعصم القلب ، المزاح يورث الضغائن وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف ، والاقتصاد يثمر القليل والإسراف يبير الكثير ، ونعم الحظ القناعة وشرماصحب المرء الحسد وما كل عورة تصان وربما أبصر الأعمى رشده وأخطأ البصير قصده . واليأس خير من الطلب إلى الناس والعفة مع الحرفة خير من الغنى مع الفجور ...

---

١ - يكنى أبا عبد الرحمن ، كان من عظماء العباسيين ،ولى المدينة وقاد الصوائف للرشيد ثم ولى الشام والجزيرة للأمين

أرفق فى الطلب وأجمل فى المكسب فإنه رب طلب قد جر إلى حرب ، ليس كل طالب بمنجح ولاكل ملح بمحتاج ، والمغبون من غبن نصيبه من الله . عاتب من رجوت عتبه وفاكه من أمنت بلواه . لاتكن مضحاكا من غير عجب ولامشاء إلى غير أرب . ومن نأى عن الحق أضاق مذهبه ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله . لايكبر عليك ظلم من ظلمك فإنه إنماسعى فى مضرته ونفعك . وعود نفسك السماح وتخير لها من كل خلق أحسنه فإن الخير عادة والشر لجاجة والصدود آية المقت والتعلل آية البخل ومن الثقة كتمان السر .

ولقاح المعرفة دراسة العلم وطول التجارب زيادة فى العقل والقناعة راحة الأبدان . والشرف التقوى ، والبلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه ، بالعقل تستخرج الحكمة وبالحلم تستخرج غرر العقل ، ومن شمر فى الأمور ركب البحور.

شر القول مانقض بعضه بعضا ، ومن سعى بالنميمة حذره البعيد ومقته القريب ، ومن أطال النظر بإرادة تامة أدرك الغاية ، ومن توانى فى نفسه ضاع ومن أسرف فى الأمور انتشرت عليه ومن اقتصد اجتمعت له واللجاجة تورث الضياع للأمور غب الأدب أحمد من ابتدائه . مبادرة الفهم تورث النسيان . سوء الاستماع يعقب العى . لاتحدث من لايقبل بوجهه عليك ولاتنصب لمن لاينمى بحديثه إليك . البلادة للرجل هجنة . قل مالك إلااستأثر وقل عاجز إلاتأخر . الإحجام عن الأمور يورث العجز والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ . لاتباعد النساء فيمللنك واستبق من نفسك بقية فإنهن إن يرين أنك ذو اقتدار خير من أن يطلعن منك على انكسار . لاتملك المرأة الشفاعة لغيرها فتميل لمن شفعت لها عليك معها .

أى بنى ، إنى قد اخترت لك الوصية ومحضتك النصيحة وأديت الحق إلى الله فى تأديبك فلا تغفلن الأخذ بأحسنها.

ج - رجل الإسلام

لقد صاغ الإمام على بن أبى طالب وصيته التى قدمها لولده الحسن رضى الله عنه فى إحكام وبلاغة تأخذ بمجامع القلوب . وتعد هذه الوصية من أطول الوصايا التى قدمها أب لابنه ولذلك فسنكتفى منها بفقرات تمثل منهج الوصية وما اشتملت عليه :

قال مبتدئا :« من الوالد الفانى ، المقر للزمان ، المدبر العمر المستسلم للدهر ، الذام للدنيا ، الساكن مساكن الموتى والظاعن عنها غدا . إلى المولود المؤمل مالايدرك السالك سبيل من قد هلك . غرض الأسقام ورهينة الأيام ورمية المصائب وعبد الدنيا وتاجر الغرور وغريم المنايا وأسير الموت وحليف الهموم وقرين الأحزان ونصب الآفات وصريع الشهوات وخليفة الأموات ».

ثم يعرض عليه منهاج حكمته فيقول : « أى بنى ، إنى وإن لم أكن قد عمرت عمر من كان قبلى فقد نظرت فى أعمالهم وفكرت فى أخبارهم وسرت فى آثارهم حتى عدت كأحدهم بل كأنى بما انتهى إلى من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره وتوخيت لك جميله وصرفت عنك مجهوله ورأيت حيث عنانى من أمرك مايعنى الوالد الشفيق وأجمعت عليه من أدبك أن يكون ذلك وأنت مقتبل العمر ومقتبل الدهر ذو نية سليمة ونفس صافية وأن ابتدئك بتعليم كتاب

الله وتأويله وشرائع الإسلام وأحكامه وحلاله وحرامه ولاأجاوز لك إلى غيره ثم أشفقت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل الذى التبس عليهم فكان إحكام ذلك على ماكرهت من تنبيهك له أحب إلى من إسلامك إلى أمر لا آمن عليك به الهلكة ورجوت أن يوفقك الله لرشدك وأن يهديك القصد فأهديت إليك وصيتى هذه ».

ومن هذه الوصية

١ - أن ينظر فى نفسه :

« يابنى اجعل نفسك ميزانا فيمابينك وبين غيرك من الناس ما تحب لنفسك واكره له ماتكره لها ، ولاتظلم كما لاتحب أن تظلم وأحسن كما تحب أن يحسن إليك واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك وارض من الناس ما ترضاه لهم من نفسك ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم ولا تقل مالا تحب أن يقال لك »

٢ - الآخرة هى الغاية :

« وأعلم أنك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا وللفناء لا للبقاء ، وللموت لا للحياة ، وأنك فى منزل قُلَعة ودار بلغة وطريق إلى الآخرة ، وأنك طريد الموت الذى لا ينجو منه هاربه ولا يفوته طالبه ولابد أنه مدركه . فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حال سيئة قد كدت تحدث نفسك بالتوبة فيحول بينك وبين ذلك فإذا أنت قد أهلكت نفسك » .

٣ - خلق الإنسان حرا :

« ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا ، وما خير خير لا يُنال إلا بشر ويسر لا ينال إلا بعسر .. وإياك أن توجف بك مطايا الطمع فتوردك مناهل الهلكة . وإن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل فإنه مدرك قسمك وآخذ سهمك وأن اليسير من الله سبحانه أعظم وأكرم من الكثير من خلقه وإن كان كل منه » ..

٤ - كفاح المعاش :

وأعلم يابنى أن الرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن أنت لم تأته أتاك .. ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى .إن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك وإن جزعت على ما تفلت من يديك فاجزع على كل ما لم يصل إليك .. استدل على ما لم يكن بما قد كان .. ولا تكن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت فى إيلامه فإن العاقل يتعظ بالآداب والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب .. اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين .

من ترك القصد جار .. والصاحب مناسب والصديق من صدق غيبه "

٥ - معاملة النساء

" وإياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن فإن شدة الحجاب أبقى عليهن وليس خروجهن بأشد من إدخالك من لا يوثق عليهن وإن استطعت ألا يعرفن غيرك فافعل . ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ولا تَعْدُ بكرامتها نفسها ، ولا تطمعها فى أن تشفع بغيرها وإياك والتغاير فى غير موضع غيرة فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم والبريئة إلى الريب " ..

٦- صلة الرحم :

" وأكرم عشيرتك فإنهم جناحك ؛ الذى به تطير وأصلك الذى إليه تصير ويدك التى بها تصول .. استودع الله دينك ودنياك واسأله خير القضاء لك فى العاجلة والآجلة والدنيا والآخرة والسلام " ..

* * *

وصية شاعر لابنه

وهو شاعر عربى .. فالكرم وحنكة الفارس المحارب ..

وهو شاعر إسلامى .. فالدين ومكارم الأخلاق ..

وهو إنسان .. حياته التحاب والتعاطف والعلم ..

كل هذه الخصائص تصورها موعظة الشاعر العربى يزيد بن الحكم الثقفى لابنه بدرا وقد جاء فيها :

يا بدر والأمثال يضـ	ـربها لذى اللب الحكيمُ
دم للخليل بوده	ما خير ود لا يدوم
واعرف لجارك حقه	والحق يعرفه الكريم
وأعلم بأن الضيف يو	ما سوف يحمد أو يلوم
والناس مبتنيان مـحـ	ـمود البناية أوذميم
واعلم بنى فإنه	بالعلم ينتفع العليم
إن الأمور دقيقها	مما يهيج له العظيم
والتبل مثل الدين تقـ	ـضاه وقد يلوى الغريم
والبغى يصرع أهله	والظلم مرتعه وخيم
ولقد يكون لك البعيـ	ـد أخاً ويقطعك الحميم
والمرء يكرم للغنى	ويهان للعدم العديم
قد يقتر الحول التقـ	ـى ويكثر الحمق الأثيم
يملى لذاك ويبتلى	هذا فأيهما المضيم
والمرء يبخل فى الحقو	ق وللكلالة ما يسيم
ما بخل من هو للمنو	ن وريبها غرض رجيم
ويرى القرون أمامه	همدوا كما همد الهشيم
وتخرب الدنيا فلا	بؤس يدوم ولا نعيم
كل امرئٍ ستئيم منـ	ـه العرس أومنها يئيم
ما علم ذى ولد أيثـ	ـكَلُهُ أم الولد اليتيم
والحرب صاحبها الصليـ	ـب على تلاتلها العزوم
من لا يمل ضراسها	ولدى الحقيقة لا يخيم
واعلم بأن الحرب لا	يطيعها المرح السؤم
والخيل أجودها المنا	هب عند كبتها الأزوم

الوصية الأخيرة

لما أحتضر ذو الإصبع العدوانى دعا ابنه أسيدا فقال له " : يا بنى إن أباك قد فنى وهو حى وعاش حتى سئم الحياة وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته : ألن جانبك لقومك يحبوك وتواضع لهم يرفعوك وابسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشئ يسودوك واكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويَكْبَرْ على مودتك صغارهم واسمح بمالك واحم حريمك وأعز جارك وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك وأسرع النهضة فى الصريخ ، فإن لك أجلاً لا يعدوك وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا فبذلك يتم سؤددك :"

ثم أنشأ يقول :

أأسيد إن مالا ملكـ .·. ـت فسر به سيرا جميلا
واشرب بكأسهم وإن .·. شربوا به السم الثميلا
أهن اللئام ولا تكن .·. لإخائهم جملاً ذلولا
ودع الذى يعد العشيـ .·. ـرة أن يسيل ولن يسيلا
أأسيد إن أزمعت من .·. بلد إلى بلد رحيلا
فاحفظ وإن شحط المزا .·. ر أخا أخيك أو النزيلا
واركب بنفسك إن همـ .·. ـت بها الحزونة والسهولا
وصل الكرام وكن لمن .·. ترجو مودته وصولا
ودع التوانى فى الأمو .·. ر وكن لها سلساً ذلولا
وابسط يمينك بالندى .·. وامدد لها باعاً طويلا
وأعزم إذا حاولت أمـ .·. ـرا يفرج الهم الدخيلا
وابذل لضيفك ذات رحـ .·. ـلك مكرما حتى يزولا
واحلل على الأيفاع للـ .·. ـعافين واجتنب المسيلا
وإذا القروم تخاطرت .·. يوما وأرعدت الخصيلا
فاهصر كهصر الليث خضـ .·. ـب من فريسته التليلا
وانزل إلى الهيجا إذا .·. أبطالها كرهوا النزولا
وإذا دعيت إلى المهـ .·. ـم فكن لفادحه حمولا

وصية أمراه لابنها

وروى الأصمعى عن أبان بن ثعلبة أنه قال : مررت بامرأة على الأرض وبين يديها ابن لها يريد سفرا وهى توصيه فقالت : " اجلس أمنحك وصيتى وبالله توفيقك وقليل إجداؤه عليك أنفع من كثير عقلك : إياك والنمائم فإنها تزرع الضغائن ولا تجعل نفسك غرضاً للرماة فإن الهدف إذا رمى لم يلبث أن ينثلم ومثل نفسك مثالا فما استحسنته من غيرك فاعمل به وما كرهته منه فدعه واجتنبه .. ومن كانت مودته بشره كان كالريح فى تصرفها .

ثم نظرت فىّ فقالت : كأنك ياعراقى أعجبت بكلام أهل البدو ؟ ثم قالت لابنها : إذا هززت هز كريما فإن الكريم يهتز لهزتك ، وإياك واللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها ، وإياك والعذر فإنه أقبح ما تعومل به ، وعليك بالوفاء ففيه النماء ، وكن بمالك جوادا وبدينك شحيحا ، ومن أعطى السخاء والحلم فقد استجاد الحلة ربطتها وسربالها .. انهض على اسم الله "

* * *

الشاعر يوصى ابنته

والشاعر المصرى المعاصر على الجارم (١٨٨١ - ١٩٤٩) يوصى ابنته ابنة القرن العشرين .. ابنة المدنية والحضارة التى لم تشهد الإنسانية مثلها من قبل .. فماذا هو قائل ياترى ؟ بماذا نصحها ؟ كيف كانت كلمته لها ؟ لقد قال :

يا ابـنتى إن أردت آيـة حـــسن .·. وجـمـالا يزين جـسمـا وعـقـلا
فـانبــذى عـادة التـبــرج نبـذا .·. فـجمـال النفـوس أسـمى وأعلى
يصنع الصـــانعـون ورداً ولكنْ .·. وردة الروض لا تضـــارع شكلا
ثم كـونى كـالشمـس تسطع للنا .·. س ســواء من عــز مـنهم وذلا
واجعـلى شيـمة الحـياء خـصالا .·. فــهــو بالغــادة الكـريمة أولى
ليس للـبنت فى السـعــادة حظ .·. إن تناءى الحــيـاء منهــا وولى
وإذا مـا رأيت بؤســاً فـجـودى .·. بدمـوع الإحـسـان يهطلن هطلا
فدموع الإحــسان أنضر فى الخـ .·. ـد وأبهـى من الـلآلـى وأعلـى

* * *

حكم قصيرة

* قال مطرف بن عبد الله لابنه ": يابنى ، لا يلهينك الناس عن نفسك فإن الأمر خالص إليك دونهم .. إنك لم تر شيئا هو أشد طلبا ولا أسرع دركا من توبة"..

* وقال محمد بن على لابنه ": يابنى إذا أنعم الله عليك نعمة فقل الحمد لله ، وإذا حزبك أمر فقل لا حول ولا قوة إلا بالله وإذا أبطأ عنك الرزق فقل استغفر الله "..

* وقال عبد الله بن المبارك " : قالت عائشة : لا تطلبوا ما عند الله من عند غير الله بما يسخط الله " ..

الوالدان .. والأقربون

- الأم
- الأب
- الأقربون

الأم

أوجب الإسلام رعاية الوالدين والإحسان إليهما فقال سبحانه : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا » (٢٣ : ٢٥ سورة الإسراء) ..

لكن أيهما أحق بالتقديم الأب أم الأم ؟

الأم ولا ريب ... قال تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن » (١٤ سورة لقمان) ..

فالله تبارك وتعالى يوصينا بالوالدين ثم يبدأ بأحقهما فى التقديم فيذكر الأم لما لها من جليل الأثر فى حياة الإنسان ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحث المسلمين على الإحسان إلى الأم والبر بها لأن فى رضائها نعمة وبركة تثريان حياة الإنسان وتنيران له الطريق ..

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك .

لقد كان العرب فى الجاهلية يفخرون بالأمهات كقول لبيد : نحن بنى أم البنين الأربعة .. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفخر بأمهاته فى الجاهلية فقال : « أنا ابن العواتك من سليم » .. وكذلك قال للأشعث بن قيس وقد خطب إليه ابنته : « غرك ابن أبى قحافة إذ أعطاك ابنته وليست من الفواطم من قريش ولا العواتك من سليم » ..

وإذا أنجبت المرأة ثلاثة بنين فنبُه أمرهم وعَظُم شأنهم أسموها « المنجبة » . ومن المنجبات فاطمة بنت الخرشب وهى التى أنجبت « الكملة » لزياد العبسى وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس .. وقيل لها : أى بنيك أفضل ؟ فقالت : الربيع ، لا بل قيس ، لا بل عمارة ، لا بل أنس ، ثكلتهم إن كنت أدرى أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

وتختلف أساليب تكريم الأم بين شخص وآخر فضلاً عن برها بالمال ومناعم الحياة فمن الناس من يبدى حبه لأمه فى الفخر بها ، يقول ابن ميادة فى الفخر بها :

أنا ابن ميادة تهوى نجبى ∴ صلت الجبين حسن مركبى
ترفعنى أمى وينمينى أبى ∴ فوق السحاب ودون الكوكب

وقال رجل من أهل المدينة مكرما الأم غير عابىء بجنسها أو لونها :

لا تشتمن امرأً فى أن تكون ∴ أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات الناس أوعية ∴ مستودعات وللأحساب آباء
ورب واضحة ليست بمنجبة ∴ وربما أنجبت للفحل سوداء

وحدث المازنى عن الإحسان إلى الأم فقال : رأيت رجلاً يطوف بالبيت وأمه على عنقه وهو يقول : « أحمل أمي وهى الحمالة ، ترضعنى الدرة والعُلالة ، ولا يجازى ، والد فعالة ..

ومن رقيق البر بالأم ما روى عن على بن الحسين فقد قيل له : أنت من أبر الناس ولا نراك تؤاكل أمك ؟ فقال : أخاف أن تسبق يدى إلى ما قد سبقت عينها إليه فأكون قد عققتها ..

* * *

فالأم تستحق كل تكريم وتبجيل .. إذ لا يعلو فضلها فضل ولا يطاول مقامها مقام .. ولِمَ لا تستحق كل ذلك ؟ أليس فى حرمها تنبت الحياة وتزدهر ، كما يقول الشاعر أبو القاسم الشابى ؟

الأم تلثم طفلها وتضمه ∴ حرم سماوى الجمال مقدس
تتأله الأفكار وهى جواره ∴ وتعود طاهرة هناك الأنفس
حرم الحياة بطهرها وصفائها ∴ هل فوقه حرم أجل وأقدس
بوركت يا حرم الأمومة والصبا ∴ كم فيك تكتمل الحياة وتقدس

أليس حرم الأمومة هو المدرسة الأولى لكل إنسان ؟

يقول الشاعر حافظ إبراهيم :

الأم مدرسة إذا أعددتها ∴ أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم روض إن تعهدها الحيا ∴ بالرى أو رق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى ∴ شغلت مآثرهم مدى الآفاق

واعترافا بفضل الأم وتكريماً لها فقد أصبح لها اليوم عيد (٢١ مارس من كل عام) لا تحتفل به مصر وحدها بل تحتفل به الأمة العربية بأسرها ومن هنا فقد زاد فضلها فضلا جديداً فقد ازدهر الشعر والأدب والأغنية والمسرحية والقصة والتمثيلية التى تشدو بفضل الأم على الإنسان والدنيا بأسرها .. إنه عيد الأم .. أجل ، إنه عيد الأسرة .. أجل ، إنه عيد الحب ..

وتبارى الأدباء والشعراء والمفكرون والموسيقيون والمطربون فى التعبير عن ذلك الحب العظيم .. تأكيداً للمعانى الإنسانية والروحية فوق صخب الأنانية المادية التى مزقت أبناء آدم وحواء إلى شيع مصطرعة .. فلعلهم يعودون كما كانوا أبناء أسرة واحدة نعم ، أبناء أم واحدة ..

يقول الشاعر محمد التهامى فى قصيدته : « هذا الحب » [1] :

من قطرة من دم قلبك الحانى ∴ قد أبدع الله يا أماه جسمانى
ما كنت شيئا وفى أحشاك صورنى ∴ ومن كيانك والأعضاء سوانى
وأنزل الروح بنيانى وقد مزجت ∴ من عذب روحك وانسابت لبنيانى
وكنت أول من هزته فرحته ∴ لما تحرك منى بعض إنسان
عشنا سويا شهوراً تسعة كملت ∴ فى هيكل واحد فى طيه اثنان

١ - نشرت بجريدة « الأهرام » فى ١٩٨٤/٣/٢١

وجـئت بى للبـرايا غـيـر آبهـة ∴ بما تقـاسـين فى صـبـر وإذعـان
ما استعذب الناس آلاما كما وجدت ∴ آلامك الكثـر من حـمـد وشكران
وخضت فى روعـة الميلاد معتركا ∴ وفيـه منا على الأموات ضـيفـان
تنسين نفسك – يا أمى – وقد صعدت ∴ أناتك البـيض للرحـمن يرعـانى
حتى إذا جئت واستوثقت من خبرى ∴ ذاب العذاب على إحساس فرحان

وكنت يا أم دنيـاى التى امـتـلأت ∴ بالحب يغمر إحساسى ووجدانى
مـا كنت أعـقل لكن كنت أدركـه ∴ بالحس ما كنت مـحـتاجا لبرهان
من لى بحب كما أسقيت صـافية ∴ من قلب أمى على صـدق وإيمان
حب يفـيض بإشـفـاق ومـرحـمـة ∴ وفى صـفـاء وإشـراق وتحنان
حب يدوم على الحـالين مـؤتلقـا ∴ ولا يلون فى سـر وإعـلان
حب تـنـزه عن أدران عـالمنا ∴ هذا الرخيص الهلوك الضائع الفانى
من لى به وبه – يا أم – والهـفى ∴ إنى شـقـيت بأحـبـابى وخـلانى
تعال يا قلبها الحانى فعندك لى ∴ حب تنزه عن أهواء شـيطان
إنى شـقـيت بحب كل غـايتـه ∴ سـوق تقـام على ربح وخـسـران
حب تغلف بالأشـواق كـاذبة ∴ كـالشـوك يكمن فى ورد وريحـان
إن يقبض الثمن الغالى فقد وثبت ∴ فـيـه العـواطف نيـرانا لنيـران
وإن تباعد ما ينبغى فقد نفرت ∴ منه القلوب وقـد باءت بكفـران
إن الذى زعـمـوه الحب خـادعـهم ∴ فـالحب نور وهـم قطعان عـميان
يا أم حـبك هذا كله قـبس ∴ هـاد تنزل من عليـاء رحـمن ٦
الله أودعــه فـينا ليـرشـدنا ∴ للحب طـهـره من كل أدران

والشاعر محمد أمين بكر يناجي أمه فيقول في قصيدته : « دوما أناجيك » [1] :

مع الأسحار والآصال يا أماه
من مهدِ الهُدَى دوما أناجيك
وبالزهرات والوردات والنحلات
يا أمي أوصيك
وهذا قلبى الولهان يا أماه
بالأشواق يأتيك
مساء الخير يا أمي وربُّ الكون يحميك
مع الأسحار والآصال يا أماه
من مهد الهدى دوما أناجيك
تركت دفاترى عشبا وأزهارا
وأطياراً تغنيك
وشدوى هاهنا دوما
أحمله أمانيك
وأرقب همسة تحيى فؤادى فى
ظلام البعد من فيك
مع الأسحار والآصال يا أماه

---

١ - مجلة « القافلة » السعودية عدد مارس ١٩٨٦

من مهد الهدى دوما أناجيك
غرست الورد ألوانا تسليك
رياحينا وبسمينا وجوريا
وزنبقة تحاكيك
مع الأسحار والآصال يا أماه
من مهد الهدى دوما أناجيك
سفينتنا تصارع فى بحار الموج تلطمه
ويلطمها لترقد فى
جنان من شواطيك
وعين القائد المحزون قد زاغت
تطوف الموج والآفاق ترقب طالعا
يمحو ظلامى من أراضيك
مع الأسحار والآصال يا أماه
من مهد الهدى دوما أناجيك
فهل من زهرة جادت بها الأيام
شمسا من أياديك
وهل من بسمة وضاءة جوف الدجى
كالبدر يشرق بالضيا
دوماً لأسمع من حكاياها

أغانيك
فلن أنساك يا أماه
لن أنسى أياديك
ولن أنسى غناء القلب
فى أحضان واديك
فأشعارى
ومنثورى
وأدعيتى
أناشيد تحييك
مع الأسحار والآصال يا أماه
من مهد الهدى دوما أناجيك
مضى زمن على الطفل الذى
يهوى مغانيك
بعيداً عن تراتيل الخمائل
فى أعاليك
بعيداً عن مزامير السعادة فى براريك
بعيداً عن ينابيع الصفاء
على روابيك
فكيف اليوم ؟ يا أماه مكتبتى ؟

وكيف اليوم يا أماه أوراقى ؟

وكيف اليوم يا أماه نحلاتى ووردانى ؟

وكلهم قد افترشوا

بساط الحب والتحنان فى

دنيا سواقيك

فلا تنسى وصياتى

ولا تدعى كتاباتى

على الجدران تمحى من نواحيك

تركت قصائدى

ورسمت أشعارى

على الحيطان

فى البستان

فوق براعم الأغصان

أحلاماً تواسيك

مع الأسحار والآصال يا أماه

من مهد الهدى دوما أناجيك

* * *

ولقد يسأل بعض الآحاد : ترى لو أن الزوجة فقدت زوجها أفيجب على أبنائها أن يبروها بتزويجها إذا كان لها فى الزواج إربة ؟

عند البعض أن لا حرج ولاغضاضة فى تزويج الأم إذ أنه يعده بابا من أبواب البر بها ويدل على ذلك رسالة الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى وقد بعثها إلى شخص يحضه فيها على تزويج أمه .. وقد جاء فيها :

« هذه [1] المكاتبة إلى فلان جعله الله ممن يؤثر دينه على الهوى وينوى بأفعاله الوقوف مع أحكام الله . فإنما لكل امرىء ما نوى ويعلم أن الخير والخيرة فيما يسره الله من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن الشر والمكروه فيما طوى نعرض له بأمر لا حرج عليه فى الإجابة إليه ولا خلل يلحق به فى المروءة .. وهل أخل بالمروءة من فعل ما حض الشرع المطهر عليه ؟ وأظهر الناس مروءة من أبلغ النفس فى مسائل حرمه عذرها ووفى حقوق أخصهن ببره كل ما علم أن فيه برها .. وإذا كانت المرأه عورة فإن كمال صونها فيما جعل الله فيه سترها وصلاح حالتها فيما أصلح الله به فى الحياة أمرها . وإذا كانت النساء شقائق الرجال فى باطن أمر البشرية وظاهره وكان الأولى تعجيل أسباب العصمة فلا فرق بين أول وقت الاحتياج إلى ذلك وآخره . وما جدع الحلال أنف الغيرة إلا ليزول شمم الحمية وتنزل على حكم الله فيما شرع لعبادة النفوس الأبية . ويعلم أن الفضل فى الانقياد لأمر الله يعضل الأولية .

وإذا كان بر الوالدة أتم وحقها أعم والنظر فى صلاح حالتها أهم تعينت الإجابة إلى ما يصلح به حالها ويسكرن إليه بالها ويتوفر به مالها ويعمر به فناؤها ويحصل به عن تقلد المنن استغناؤها وتحمل به كلفة خدمها عنها وتدفع به ضرورات لابد لذوات الحجاب والحجال منها ويضفو به ستر الإحصان والحصانة عليها ويطهر به سرما أوجبه الله لها من تتبع مواقع الاحسان إليها .

---

١ - صبح الأعشى حـ ٩ صـ ٢٧٥٦

وقد تقدم من سادات السلف من تولى ذلك لوالدته بنفسه واعتده من أسباب بره بأمه الذى قابل به ما أسلفته إليه فى أمسه علماً منهم أن استكمال البر مما يعلى قدر المرء ويغلى . وقد أجاب زيد بن زين العابدين هشاماً لما سأله : لم زوجت أمك بعد أبيك ؟ فقال لتبشر بآخر مثلى . لاسيما والراغب إلى المولى فى ذلك ممن يرغب فى قربه ويغبط على ما لديه من نعم ربه ، ويعظم لاجتماع دنياه ودينه ويكرم ليمن تقيته وجود يمينه ويعلم أن العقيلة تحل منه فى أمنع حرم وتستظل من ذراه بأضفى ستور الكرم مع ارتفاع حسبه واشتهار وعلو قدره فى متنصبه وحاله وسببه .. وأنه من يحسن أن يحل من المولى محل والده وأن يتجمل من ذريته بمن يكون فى الملمات بنانا ليده وعضدا لساعده فإن المرء كثير بأخيه .. وإذا أطلق عليه بحكم المجاز لفظ العمومة فإن عم الرجل صنو أبيه وأنا أتوقع من المولى الجواب بما يجمع شمل التقى ويعلم به أنه تخير من البر أفضل ما ينتقى ويتحقق بفعله أن مثله لا يهمل واجبا ولأمر ما قال الأحنف وقد وصف بالأناة : لكنى أتجعل أن لا أرد كفؤا خاطبا » .

الأب

ويأخذ البر بالأب المرتبة الثانية وليس معنى هذا أن البر به أقل درجة أو يمكن التهاون فى بعض حقه ..

عن أبن عمر قال : أتى رجل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن والدى يأخذ منى مالى وأنا كاره . فقال عليه السلام : أوما علمت أنك ومالك لأبيك ؟

وإذا كان الابن عظيم البر بأبيه فإنه يستولى على قلبه ويكون عنده كل شيء فى الوجود فلا يرى الأب سعادة الدنيا وهناءها إلا بعينى ابنه فإن أصابه مكروه فكأنما قد أصابه هو .. لا يصبر على غيابه لحظة .. واللحظة عنده دهرا .. وفى قصة كلاب بن أمية مع عمر بن الخطاب رضوان الله عليه خير شاهد على قدر الحب الذى ينطوى عليه قلب الأب وقدر البر والإحسان الذى يحبوه به الابن . فقد ذكر أن كلاب بن أمية لقى طلحة والزبير - رضى الله عنهما - فسألهما : أى الأعمال أفضل فى الإسلام ؟ فقالا : الجهاد . فسأل عمر بن الخطاب أن يغزيه فأغزاه فى جيش وكان أبوه قد وهن العظم منه ، فلما طالت غيبة كلاب عنه قال :

لمن شيخان قد نشدا كلابا ∴ كتاب الله لو قبل الكتابا

أناشده فيعرض فى إباء ∴ فلا وأبى كلابا ما أصابا

إذا سجعت حمامة بطن واد ∴ إلى بيضاتها دعيا كلابا

أتاه مـهـاجـران تكنفـاه ∴ فـفـارق سنحـه خطأ وخـابا
تركت أباك مـرعـشـة يداه ∴ وأمك مـا تسـيغ لهـا شـرابا
وإنك واتبـاع الأجـر بعـدى ∴ كـبـاغى الماء يتـبع السـرابا

فبلغت أبياته عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فلم يردد كلابا فطال مقامه فأشتد جزع أبيه واختلط .. ثم أتى عمر رضى الله عنه يوما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار فوقف عليه ثم انشأ يقول :

أعـازل قـد عـذلت بغـيـر قـدر ∴ ولا تدرين عـاذل مـا ألاقى
فـإمـاكنت عـاذلتى فـردى ∴ كـلابا إذ توجـه للعـراق
ولم أقض اللبـانة من كـلاب ∴ غـداة غـد وآذن بالفـراق
فـتى الفـتـيان فى عـمـر ويسـر ∴ شـديد الركن فى يوم التـلاقى
ولا وأبيك مـا باليت وجـدى ∴ ولا شـغـفى عليك ولا اشتـياقى
وإشـفـاقى عليك إذا شـتـونا ∴ وضـمك تحت نحـرى واعـتناقى
فلو فلق الفـؤاد شـديد وجـد ∴ لهم سـواد عـينى بانفـلاق

فبكى عمر رضى الله عنه بكاء شديدا وكتب برد كلاب إلى المدينة فلما دخل عليه قال : ما بلغ من برك بأبيك ؟ قال : كنت أوثره وأكفيه وكنت اعتمد - إذا أردت أن أحلبه له لبنا - أغزر ناقة فى إبله وأسمنها وأتركها حتى تستقر ثم أغسل أحلامها حتى ترد ثم أحتلب فأسقيه . فبعث عمر رضى الله عنه إلى أمية من جاء به فأدخله يتهادى وقد ضعف بصره وانحنى . فقال : كيف أنت يا أبا كلاب ؟ فقال : كما ترى يا أمير المؤمنين . قال : فهل لك من حاجة ؟ قال : نعم ، كنت أشتهى أن أرى كلابا فأشمه

شمة وأضمة ضمة قبل أن أموت . فبكى عمر رضى الله عنه وقال : ستبلغ في هذا ما تحب إن شاء الله . ثم أمر كلابا بأن يحلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث إليه بلبنها . ففعل ، وناوله عمر الإناء وقال : دونك هذا يا أبا كلاب . فلما أخذه أدناه من فمه ثم قال لعمر : والله يا أمير المؤمنين إنى لأجد رائحة يدى كلابا من هذا الإناء . فبكى عمر وقال : هذا كلاب عندك حاضر وقد جئناك به . فوثب إلى ابنه فضمه إليه وقبله وجعل عمر رضى الله عنه يبكى ومن حضره وقال لكلاب : الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا ثم شأنك بنفسك بعدهما ..

* * *

وإذا حزب الانسان أمرٌ أفلا يرجع إلى أبيه يلتمس منها المشورة وحسن الرأى أفلا يفتقد عنده ما غُمَّ عليه وأشكل ؟ .. بلى .. وفى المشورة تقدير وتكريم .. قال أسامة بن منقذ يخاطب والده مستشيراً مستعينا :

يا ابن الألى جمع الفخار لبيتهم ∴ ما شتتوه من العطاء وفرقوا
وتملكوا رق الأكارم بالذى ∴ فكوا به رق العناة وأطلقوا
أشكو إلى علياك هما ضاق عن ∴ كتمانه صدرى وما هو ضيق
وطوارقاً للهم أقربها الكرى ∴ وتلظ بى صبحا فما تتفرق
لو لم أمن النفس أنك كاشف ∴ كرباتها عنها لكادت تزهق
أنا عائذ بك من عقوق محبط ∴ عملى فعصيانى لأمرك موبق
لا تلزمنى بالهوان وحمله ∴ إن احتمال الهون ثقل مرهق

ثم يعترف بما لأبيه عليه من فضل ويتوق إلى الرجوع إلى حماه فيقول :

مالى وللشفعاء فيما أرتجى ∴ من حسن رأيك فيَّ وهو شفيعى
أعذبت لى من جود كفك موردى ∴ فصفا وأمرع من نداك ربيعى

وبك اعللت وظللت من سـامـرته ∴ فـخـرا بمجدك لا بحسن صنيعى
وقـضـى ببـعـدى عنك دهر جـائر ∴ وإلى جـانبك إن سلمت رجـوعى

* * *

ومن مظاهر بر البنت بأبيها أنها تأخذ بيده فى تخطى ما ألقته الأيام فى طريقه من عقبات .. فبكلمة منها ترد تحية الكرام .. وبكلمة منها ترد جميل الكرام ، وفى الحالين بر وتكريم ..

ومن مظاهر ذلك أن الشاعر لبيداً ، وكان شريفا فى الجاهلية والإسلام ، كان قد نذر ألا تهب الصَّبا إلا نحر وأطعم ولكنها هبت يوما وهو بالكوفة يعانى الفاقة والعوز .. فعلم بذلك الوليد بن عقبة بن أبى معيط وكان أميرا عليها لعثمان بن عفان فخطب الناس فقال : إنكم قد عرفتم نذر أبى عقيل وما وكده على نفسه فأعينوا أخاكم .. ثم بعث إليه بمائة ناقة وبعض الناس إليه فقضى نذره وكتب إليه الوليد :

أرى الجـزار يشـحـذ شـفـرتيـه ∴ إذا هـبت رياح أبى عـقـيل
أغـر الوجـه أبيض عـامـرى ∴ طويل البـاع كـالسـيف الصـقـيل
وفى ابن الجـعـفـرى بحلفـتـيـه ∴ على العـمـلات والمال القليل
بنحـر الكوم إذ سـحـبت عليـه ∴ ذيول صـبـا تجـاوب بالأصـيل

فقال لبيد لابنته أجيبيه فقد رأيتنى وما أعيا بجواب شاعر ، فقالت :

إذا هبت رياح أبى عـقـيل ∴ دعـونا عند هبـتـهـا الوليـدا
أشم الأنف أصيد عبشـميـا ∴ أعـان على مـروءته لبـيـدا
بأمـثـال الهـضـاب كـأن ركـبـا ∴ عليـهـا من بنى حـام قـعـودا
أبا وهب وجـزاك الله خـيـرا ∴ نحـرناها وأطعـمنا الثـريدا
فـعـد إن الكريم له مـعـاد ∴ وظنى بـابن أروى أن يعـودا

فقال لها أبوها : أحسنت لولا أنك استزدته . فقالت : يا أبت إن الملوك لا يُستحى من مسألتهم .. فقال لها : وأنت فى هذا أشعر ..

* * *

لكن إذا كان الأب والابن يتوليان عملا واحداً ويقومان عليه خير قيام غير أن الأب يتقنه أكثر من الابن فكيف يمكن للأخت أن تمايز بينهما وأيهما تفضل ؟ .. ذلك ما وجدت الخنساء نفسها فيه : فقد تسابق أبوها وأخوها فسبق أبوها فقيل لها : لئن مدحت أباك لقد هجوت أخاك ، فقالت :

جارى أباه فأقبلا وهما ∴ يتعاوران ملاءة الحضر
حتى إذا نزت القلوب وقد ∴ نزت هناك العذر بالعذر
وعلا هتاف الناس أيهما ∴ قال المجيب هناك لا أدرى
برزت صحيفة وجه والده ∴ ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يساويه ∴ لولا جلال السن والكبر
وهما وقد برزا كأنهما ∴ صقران قد حطا على وكر

* * *

وإذا كان من الواجب أن يحسن الإنسان إلى والده ويوسع له من الطمأنينة والرخاء فإنه إذا قضى كان لزاما عليه أن يظل على ود وإخاء مع أوداء أبيه ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه .

الأقربون

فإذا أتينا إلى الأقارب فكيف تكون علاقة الأبناء بأقاربهم ؟

* قال تعالى : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » (١ سورة النساء) .

* وقال تعالى : « وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين » (٨٣ سورة البقرة) .

* وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ؟ قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فهو لك :

* وقال عليه السلام : من سره أن يُمد له فى عمره ويُوسع له فى رزقه فليصل رحمه ..

* وقال عليه السلام : اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم فإنه لا قرب بالرحم إذا قطعت وإن كانت قريبة ولا بعد بها إذا وصلت وإن كانت بعيدة ..

* * *

ولم يأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حث المسلمين على صلة الرحم لما لها من عميق الأثر فى إشاعة المحبة بين أبناء المجتمع الإسلامى لأن فى التعاطف والتحاب كفالة روحية تصونه من التمزق

والتطاحن .. فقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « أيها الناس إنه لا يستغنى الرجل وإن كان ذا مال عن عشيرته ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم . وهم أعظم الناس حيطة من ورائه والملم لشعثه وأعطفهم عليه عن نازلة إذا نزلت به . ولسان الصديق يجعله الله للمرء فى الناس خير له من المال يورثه .. ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذى لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه .. ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة ، وتقبض منهم عنه أيد كثيرة .. ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة » .

* * *

فإن بغى أحد الأرحام فليتذكر الإنسان حرمته وليبسط له من جناح الصفح والاحتمال ما قد يغير طبيعته فيجدد مودته .. وما كان أقدر معاوية بن أبى سفيان بإسلامه وحلمه على استلال الضغائن من النفوس وعلى مراعاة رحمه وذوى قرباه ..

لقد جابهته أروى بنت الحارث بكلام كله تقريع وتعنيف ومع ذلك فإنه أحسن إليها وردها رداً جميلا .. فلقد دخلت عليه وهى عجوز كبيرة فلما رآها قال : مرحبابك يا عمة . قالت : كيف أنت يا ابن أخى ؟ لقد كفرت بعدى بالنعمة وأسأت لابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك بغير بلاء كان منك ولا من آبائك فى الإسلام .. ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأتعس الله منكم الجدود وأصفر الخدود حتى رد الله الحق إلى أهله وكانت كلمة الله هى العليا .. ونبينا محمد هو المنصور على من ناوأه ولو كره المشركون .. « وطفقت تكيل الاتهامات لمعاوية وهو صامت صابر ، لكن عمرو بن العاص زجرها بقوله : أيتها العجوز الضالة أقصرى من قولك وغضى من طرفك . قالت : ومن أنت لا أم

لك ؟ قال : عمرو بن العاص . قالت : يا ابن اللخناء النابغة أتكلمنى ؟ أربع على ظلعك واعن بشأن نفسك فوالله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ولا كريم منصبها . وهكذا لم يسلم عمرو من لسانها .. ثم قال لها معاوية : يا عمة اقصدى قصد حاجتك . فقالت : حاجتى أن تأمر لى بألفى دينار ، وألفى دينار وألفى دينار . فقال : ما تصنعين بها ؟ قالت : أشترى بألفين عينا خرارة فى أرض خوارة تكون لولد الحارث بن عبد المطلب ، وبألفين أزوج فتيان المطلب من أكفائهم وبألفين أستعين على عيش المدينة وزيارة بيت الله الحرام . فقال : نعم الوضع وضعتها .. وأمر لها بستة آلاف دينار وقال لها : يا عمة ، أنفقى هذه فيما تحبين فإذا احتجت فاكتبى إلى ابن أخيك يحسن صفدك ومعونتك إن شاء الله » .

إلا أن قد يحدث بين الأقارب خصومات ومشاحنات فلكى يتقى ما قد ينجم بينهم من منازعات العداوة ولكى لا يصبحوا « كالعقارب » كما يقال دائما فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يأمر عماله أن يباعدوا بين ذوى القربى فكتب إلى أبى موسى الأشعرى : « مر ذوى القربات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا .. » .

وقال أكثر بن صيفى : « تباعدوا فى الديار ، تقاربوا فى المودة » ..

* * *

وإذ تكون الأسرة هى القبيلة أو العشيرة فإن أبناءها كانوا يؤدون واجبهم نحوها بالقتال فى سبيلها وفى الأياد عن حوضها غير عابئين بأرواحهم أمام كيان القبيلة وحماها .. فإذا شاءت الأقدار أن يقتتل أبناء العم انتفض الحلماء والعقلاء ليذكروا المتعادين بما يجلبه الخصام والعداء من فرقة وشتات .. ولربما تنازل ابن العم صاحب الحق عن حقه كى يبطل نعيب الغراب الذى يوشك أن يصك الأسماع ويكلم الأفئدة ..

كان أبو الغول (١) الطهوى يفتخر بفرسان قبيلته ويقول :

فـدت نفـسى ومـا ملكت يمينى ∴ فـوارس صـدقت فـيـهم ظنونى
فــــوارس لا يملـون المنـايا ∴ إذا دارت رحـا الحـرب الزبون
ولا يجـزون من حـسن بسىء ∴ ولا يجـــزون من غلـظ بلـين
ولا تَبْلى بســالتـهم وإن هُمْ ∴ صلوا بالحـرب حـيناً بعـد حين
هُمُ منعـوا حِمىَ الوقـبى بضـرب ∴ يؤلف بين أشـتـات المنون
فنكب عنهم درأ الأعـــادى ∴ وداوَوْ بـالجـنون مـن الجـنـون
ولا يرعـون أكناف الهـوينى ∴ إذا حلوا ولا أرض الهـــون

* * *

ويصور (٢) بشامة بن حزن النهشلى خلائق قبيلته فيقول :

إنا مـحـيوكِ يا سلمى فـحـيـينا ∴ وإن سقيت كرام الناس فاسقينا
وإن دعـوت إلى جلى ومكرمـة ∴ يومـا سراة كرام الناس فـادعينا
إنا بنى نهــشل لا ندعى لأب ∴ عنه ولا هو بـالأبنـاء يشـــرينا
إن تبُـتـدر غـايةٌ يومـا لمكرمـة ∴ تلق السـوابق منا والمصلينا
وليس يهلك منا ســيـد أبدا ∴ إلا أفـتلينا غـلامـاً سـيداً فـينا
إنا لنرخص يوم الروع أنفـسنا ∴ ولو نسـام بهـا فى الأمن أغلينا
بيض مـفـارقنا تغلى مـراجلنا ∴ نأسـوا بأمـوالنا آثار أيدينا
إنا لمن مـعـشـر أفنى أوائلهم ∴ قـيل الكمـاة ألا أين المحـامـونا
لو كان فى الألف منا واحداً فدعَوْا ∴ من فـارس خـالهم إياه يعنونا

---

١ - شاعر جاهلى　　　٢ - شاعر جاهلى

وإذا كان الفخر بالقبيلة فخراً بالقدرة على المقارعة والمصارعة فلابد وأن يكون التحريض على القتال ومناجزة المعتدين ضرورة يفرضها الولاء للعشيرة وأبنائها .. فها هى ذى كرمة بنت ضالع أم مالك بن زيد فارس بكر تحرض قومها على القتال وتحذرهم من الإدبار فتقول :

نحن بنات طارق ∴ نمشى على النمارق
مشى القطا البارق ∴ المسك فى المفارق
والدر فى المخانق ∴ إن تقبلوا نعانق
أو تدبروا نفارق ∴ فراق غير وامق
عرسى المولى طالق ∴ والعار منا لاحق

* * *

وقد تقوم الزوجة بالحض عن القتال والأخذ بالثأر وذلك كما فعلت ، نائلة بنت الفرافضة زوج عثمان بن عفان رضى الله عنه فقد كتبت إلى معاوية بن أبى سفيان تستثيرة على الأخذ بثأر عثمان فقالت :

« من نائلة بنت الفرافضة إلى معاوية بن أبى سفيان ..

أما بعد ، فإنى أدعوكم إلى الله الذى أنعم عليكم وعلمكم الإسلام وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر ونصركم على العدو وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة .. وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم فإنه قال : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » .. فإن أمير المؤمنين بغى عليه ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية لحق على كل مسلم يرجو إقامته أن ينصره فكيف وقد عرفتم قدمه فى الإسلام وحسن بلائه وأنه أجاب الله وصدق كتابه واتبع رسول الله والله أعلم به إذا انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخره . وإنى أقص عليكم

خبره - إنى شاهدة أمره كله » .. ثم جعلت تسرد أحداث المأساة إلى أن اختتمت رسالتها بقولها : « وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه فإنه والله إن كان أثم من قتله فما سلم من خذله . فانظر أين أنتم من الله وأنا أشتكى كل ما مسنا إلى الله عز وجل وأستصرخ بصالحى عباده .. فرحم الله عثمان ولعن قتلته وصرعهم فى الدنيا مصارع الخزى والمثلة وشفى منهم صدور » ..

* * *

وشر ما تصاب به الأسرة أو القبيلة هو أن يقع الشقاق بين أبنائها بيد أن من عقلائها - كما قلنا - من يحاول أن يطفىء نار الشقاق كلما اتقدت ، وذلك بالعتاب تارة والتحذير تارة ثانية وبالتحذير تارة ثالثة :

فطرفة (١) بن العبد يعاتب ابن عمه فيقول :

فمالى أرانى وابن عمى مالكا ∴ متى أدن منه ينأ عنى ويبعد
يلوم وما أدرى علام يلومنى ∴ كما لا منى فى الحى قرط بن معبد
على غير شىء قلته غير أننى ∴ نشدت فلم أغفل حمولة معبد
وقربت بالقربى وجدك إننى ∴ متى يك عبد للنكيثة أشهد
وإن أدع للجلى أكن من حماتها ∴ وإن تاتك الأعداء بالجهد أجهد

ثم هو يعاتب أعمامه الذين منعوه حق أبيه عندهم - وقد توفى وهو صغير - فيقول :

ما تنظرون بحق وردة فيكم ∴ صغر البنون ورهط وردة غيب
قد يبعث الأمر العظيم صغيره ∴ حتى تظل له الدماء تصبب
والظلم فرق عَمّىْ وائل ∴ بكر تساقيها المنايا تغلب
قد يبرد الظلم المبين اجنا ∴ ملحاً يخالط بالذعاف ويقشب

---

١ - شاعر جاهلى

أبوا الحقوق تقر لكم أعراضهم ∴ إن الكريم إذا يحرد يغضب

* * *

ويغتفر محمد بن عبد الله الأزدى لأبناء عمه ما يقترفونه فى حقه عل الأيام تردهم إلى صوابهم .. فيقول :

ولا أدفع ابن العم يمشى على شفا ∴ وإن بلغتنى من أذاه الجنادعُ
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه ∴ لترجعه يوما إلى الرواجع
وحسبك من ذل وسوء صنيعة ∴ مناواة ذى القربى وإن قيل قاطعِ

* * *

ويعاتب إياس بن أبى عائذة خاله إياس بن سهم مذكراً إياه برحمة فيقول :

أبلغ إياساً أن عرض ابن اختكم ∴ وداؤك فاصطن حسنه أو تبذل
فإن تك ذا طول فإنى ابن اختكم ∴ وكل ابن أخت من مدى الخال معتلى
فكن أسداً أو ثعلباً أو شبيهه ∴ مهما تكن أنسب إليك وأشكل
وما ثعلب إلا ابن أخت ثعالب ∴ وأن ابن أخت الليث رئبال أشبل

* * *

ولقد سعى المرجفون والدساسون بين الحسن بن على وأخيه من أبيه محمد بن الحنفية مما أدى إلى حدوث نُفْرة بينهما غير أن محمد بن الحنفية بادر بالمصالحة فكتب إلى أخيه الحسن يقول : « إنى وأباك هو على بن أبى طالب لا تفضلنى فيه ولا أفضلك ولكن أمى امرأة من بنى حنيفة.وأمك هى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو ملئت الأرض بمثل أمى لكانت أمك خيراً منها . فإذا قرأت كتابى هذا فأقدم على حتى تترضّانى فإنك أحق بالفضل منى » ..

* * *

أزمـــات

- عقوق الوالدين
- الطـلاق
- غـــروب

عقوق الوالدين

شر ما يصيب الأسرة بالتصدع هو آفة العقوق فهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله تعالى ...

وما من شك فى أن الآباء يتحملون قدراً من المسئولية له خطورته فى تربية الأبناء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله والداً أعان ولده على بره » .. والإعانة على البر تكون ببسط رداء الرحمة على الابن فلا يكون الأب قاسيا يحرم أبناءه مما فى يديه ويتركهم يتضورون من الحرمان والمسغبة .. أو يهجرهم وينأى بعطفه عنهم فيعاملهم كأنهم أعداء غرباء .

غضب معاوية بن أبى سفيان على يزيد ابنه فهجره ، فقال له الأحنف : « يا أمير المؤمنين ، أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة وأرض ذليلة فإن غضبوا فأرضهم وإن سألوا فأعطهم ولا تكن قفلاً فيملوا حياتك ويتمنوا موتك » .. ومهما يكن من أمر فإن القاعدة التى يجب على الأبناء أن يضعوها أمام أعينهم هى قوله سبحانه : « وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » .

* * *

لقد كان حكماء العرب صادقين كل الصدق حين قالوا : العقوق ثكل من لم يثكل .. أفلا يثكل الوالدان ابنهما حين يعقهما ؟ بلى .. وإنها لإحدى الكُبَرَ ..

* قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ومنعاً وهات ووأد البنات .. وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » .

* وقال عليه السلام : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور » .

ومن العقوق أن يتساب الأبناء ، قال عليه الصلاة والسلام : إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه .. قيل يا رسول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه » .

فإذا عق الابن أمه فربما شكته إلى الله وتلك أقسى شكاة تخرج من شفتى الأم ذلك لأن أبواب السماء تفتح لها .. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوة الوالدة أسرع إجابة قيل : يا رسول الله ولم ذاك ؟ قال هى أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط . وقد تشكو الأم ابنها للناس علهم يزجروه ويصرفوه عن غيه وقالت امرأة من بنى هوازن تشكو عقوق ابنها :

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه ∴ أم الطعام ترى فى جلده زغبا
حتى إذا آض كالفحال شذبه ∴ أبّاره ونفى عن متنه الكربا
أنشا يمزق أثوابى يؤدبنى ∴ أبعد شيبى عندى يبتغى الأدبا
إنى لأبصر فى ترجيل لمته ∴ وخط لحيته فى خده عجبا
قالت له عرسه يوما لتسمعنى ∴ مهلا فإن لنا فى أمنا أربا
ولو رأتنى فى نار مسعرة ∴ ثم استطاعت لزادت فوقها حطبا

* * *

وإذا عق الإبن أباه فقد يشكوه للناس مرددا فى أسى : كيف رباه ونشّأه .. قال أمية بن أبى الصلت يشكو ولده العاق مصوراً ما عاناه فى تربيته :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا ∴ تُعل بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت ∴ لشكواك إلا ساهراً أتململ
كأنى أن المطروق دونك بالذى ∴ طرقت به دونى وعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها ∴ لتعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى ∴ إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى منك جَبْهاً وغلظة ∴ كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ∴ فعلت كما الجار المجاور يفعل
وسميتنى باسم المفند رأيه ∴ وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل
تراه معدا للخلاف كأنه ∴ برد على أهل الصواب موكل

أما أبو القاسم الدِّينَوَرى فقد عقه ابنه وارتحل عنه فكانت شكواه :

ربيته وهو فرخ لا نهوض له ∴ ولا شكير ولا ريش يواريه
حتى إذا ارتاش واشتدت قوادمه ∴ وقد رأى أنه آتت خوافيه
مد الجناحين مدا ثم هزهما ∴ وطار عنى فقلبى فيه ما فيه

* * *

ومع ذلك فقلب الأب لا يغضب على الإبن وإن عقه ، فها هو ذا إبراهيم بن هلال الصابى يعتب على بعض ولده فيقول :

أرضى عن ابنى إذا ما عقنى حذرا ∴ عليه أن يغضب الرحمن من غضبى
ولست أدرى لم استحققت من ولدى ∴ إقذاء عينى وقد أقررت عين أبى ؟

الطــلاق

(أ) منازعات

أخوف ما يخافه المصلحون على المجتمع أن يصاب بالانقسام والفرقة . فما دبت البغضاء بين قوم إلا ضعف أمرهم وذهب ريحهم .. فالتماسك على وئام ومحبة والتآصر على وفاق وانسجام أجدى على المجتمع وأخلق أن يبلغه الأمانى التى ينشدها ..

* قال تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » (١٠٣ سورة آل عمران) .

إذن فعلى كل فرد أن يعتصم بالحق ويعمل له لأنه مسئول عنه .

* قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول : فالإمام راع وهو مسئول ، والرجل راع على أهله وهو مسئول ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة والعبد راع على مال سيده وهو مسئول ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول » .

* وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم مسئولية الرجل والمرأة فى الأسرة فقال فى خطبته فى حجة الوداع : « أما بعد ، أيها الناس إن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا . لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن

تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهم شيئا » ..

فعلى الزوج أن يحسن معاشرة زوجته وأن يدخل السرور عليها وعلى أبنائه .

* قال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » (١٩ سورة النساء) .

* وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائه » .

* وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه : « ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى فإن التمسوا ما عنده وجد رجلا » .. ولما كان الرجل قوأما على المرأة كما قال تبارك وتعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » (٣٤ سورة النساء) .. فإن على الزوجة ألا تفعل شيئا إلا فى الحدود التى رسمها القرآن الكريم وأبانتها أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ..

* قال عليه السلام : « لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه وما أنفقت من نفقة من غير أمره فإنه يؤدى إليه شطره » ..

إلا أن الخلافات قد تنشب بين الزوجين لأسباب كثيرة فقد يكون الرجل مُغَاليا فى كرمه وسخائه إلى درجة السفه فتعنفه زوجته ومن هنا ينشأ الخلاف .. فها هو ذا زوج يطلب من زوجته أن تعد لأضيافة ما يليق بهم من

القِرى .. يقول مُرة بن قحطان التميمى السعدى - وهو شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية :

يا ربة الدار قومى غير صاغرة ∴ ضمى إليك رحال القوم والقربا
فى ليلة من جمادى ذات أندية ∴ لا يبصر القوم من ظلمائها الطّنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة ∴ حتى يلف على خيشومه الذنبا
ماذا ترين أندنيهم لأرحلنا ∴ فى جانب البيت أم نبنى لهم قببا
للمرمل الزاد معنى بحاجته ∴ من كان يكره ذَمًّا أو يقى حسبا

وقد تلحف الزوجة فى اللوم والتعذير من كثرة الإنفاق والتبذير فيرد عليها رجل من آل حرب بقوله :

باتت تلوم وتلحانى على خلق ∴ عودته عادة والجود تعويد
قالت أراك بما أنفقت ذا سرف ∴ فيما فعلت فهلا فيك تصريد
قلت اتركينى أبع مالى بمكرُمةٍ ∴ ينمى ثرائى بها ما أورق العود
أنا إذا ما أتينا أمر مكرُمة ∴ قالت لنا أنفس حربية عودوا

ويخاطب حاتم الطائى زوجته حين لامته على كثرة إنفاقه بقوله :

وعاذلة هبت بليل تلومنى ∴ وقد غاب عَيُّوق الثريا فعردا
تلوم على إعطائىَ المال ضلة ∴ إذا ضن بالمال البخيل وصردا
تقول ألا امسك عليك فإننى ∴ أرى المال عند المسكين معبدا
ذرينى ومالى إن مالك وافر ∴ وكل امرىء جار على ما تعودا
ذرينى يكن مالى لعرضى جُنَّة ∴ يقى المال عرضى قبل أن يتبددا
أرينى جوادا مات هزلا لعلنى ∴ أرى ما ترين أو بخيلاً مخلدا
ألم تعلمى أنى إذا الضيف لامنى ∴ وعز القِرى أقرى السديف المسرهدا

إذن أفيضرب الزوج زوجته لكثرة عذلها ولومها ؟

ألا يحق له ذلك طالما أنها لا تكف عن اللجاج والاعوجاج ؟ إن ذلك لا يكون من سيد كريم جواد فهو يرد بقوله :

وما أنا بالساعي إلى أم عاصم ∴ لأضربها إنى إذاً لجهول
لك البيت إلا فينة تحسنينها ∴ إذا حان من ضيف على نزول

* * *

إن رب الأسرة حين كان يسخو بماله ويجزل لأبنائها العفاء ويوسع لهم الحباء إنما كان يهدف إلى أمور ثلاثة :

أولا : صونه عرضه وفي صون عرضه حفاظ على كرامة أسرته .

ثانيا : حسن الأحدُوثة على مدى الأيام والأعوام .

ثالثا : إغاثة الملهوف وإعانة المعدم .

وكان الهدف الأول مما يحرص عليه كل عربي يريد أن يتقى سوء القالة ويجنب بيته وأبناءه فحش القول الذى يخزيهم ويحط من قدرهم بين القبائل .. ألم يفعل ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه صونا لأعراض المسلمين ؟ لقد دفع للحطيئة الشاعر الهجاء ثلاثة آلاف درهم ليكف لسانه عن الخوض فى أعراض المسلمين وقال الحطيئة فى ذلك :

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع ∴ شتما يضر ولا مديحا ينفع
وحميتنى عرض اللئيم فلم يخف ∴ ذمى وأصبح آمنا لا يفزع

* * *

والغيرة من بواعث الشقاق بين الزوجين يغار هو عليها أو تغار هى عليه ، والغيرة مطلوبة عند الزوج والزوجة ولكنها إذا جاوزت الحد الذى تحمد فيه كان مفتاحاً للطلاق .. وقد ذم الكثيرون الغيرة التى على هذه الشاكلة ..

قال الشاعر مسكين [1] الدارمى :

وإنى امرؤ لا آلف البيت قاعدا ∴ إلى جانب عرسى لا أفرطها شبرا
ولا مقسم لا أبرح الدهر بيتها ∴ لأجعله قبل الممات لها قبرا
إذا هى لم تحصن أمام قبيلها ∴ فليس بمنجيها بنائى لها قصرا
ولا حامل الظن ولا قول قائل ∴ على حائط حتى أحيط به خبرا
فهبنى امرؤ راعيت ما دمت شاهدا ∴ فكيف إذا ماسرت من بيتها شبرا

وقال أيضا :

ألا أيها الغائر المستشيط ∴ علام تغار إذا لم تغر
فما خير عرس إذا خفتها ∴ وما خير بيت إذا لم يُزر
تغار على الناس أن ينظروا ∴ وهل يفتن الصالحات النظر
فإنى سأخلى لها بيتها ∴ لتحفظ لى نفسها أو تذر
إذا الله لم يعطه ودها ∴ فلن يعطى الود سوط مضر
ومن ذا يراعى له عرسه ∴ إذا ضمه والمطى السفر

والغيرة لازمة فى كل شأن من شئون الحياة .. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يغار » .. وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله .. وكان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من أشد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرة على بيته وعلى إقامة حدود الله . وفى حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمر بن الخطاب : دخلت الجنة فأبصرت قصرا فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب ، فأردت أن أدخله فلم يمنعنى إلا علمى بغيرتك . فقال عمر : بأبى أنت وأمى يا نبى الله أو عليك أغار » ..

---

١ - شاعر إسلامى أموى من سادات قومه ، هاجى الفرزدق .

وقد تنشأ الغيرة البغيضة عند النساء من عطف الرجل على أحد من أقاربه . فالزوجة لاتنفك تكدر حياة زوجها باتهامه بين آونة وأخرى بأنه أشد عطفا على أبناء أخيه مثلاً ، من أبنائه .

وممن فعلن ذلك زوجة الشاعر الجاهلى والفارس الكريم حُجَيَّةُ بن المضرب . ولقد تحمل حجية لوم زوجته كثيرا ولما لم يعد عنده صبر على عَذْلها وتغضبها قال لها منذرا :

لجنا ولجت هذه فى التغضُّب ∴ ولط الحجاب دوننا والتنقب
تلوم على مال شفانى مكانه ∴ إليك فلومى ما بدا لك واغضبى
رأيت اليتامى لا تسد فقورهم ∴ هدايا لهم فى كل قعب ومشعب
فقلت لعبدينا أريحا عليهم ∴ سأجعل بيتى مثل آخر معزب
بنى أحق أن ينالوا سغابة ∴ وأن يشربوا رنقا لدى كل مشرب
ذكرت بهم عظام من لو أتيته ∴ حريبا لآسانى لدى كل مركب
أخى والذى إن أدعه لملمة ∴ يجبنى وإن أغضب إلى السيف يغضب
فلا تحسبينى بَدْلَمًا أن نكحته ∴ ولكننى حجية بن المضرب
رحمت بنى معدان إذ ساف مالهم ∴ وحق لهم ورب المحَصَّب
فإن تقعدى فأنت بعض عيالنا ∴ وإن أنت لم ترضى بذلك فاذهبى

وكذلك من اللاتى شغبن على أزواجهن غيرة من إيثار الزوج لأبناء أخيه المتوفى زوجة معن بن زائدة . فقد عاتبته يوما فى تقديم ابن أخيه يزيد بن مزيد ، فقالت : إنك لتقدمه وتؤخر بنيك وتشيد بذكره وتخمل ذكرهم ولو نبهتهم لانتبهوا ولو رفعتهم لارتفعوا .. فقال معن بن زائدة : إن يزيد قريب لم تبعد رحمه وله على حق الولد إذ كنت عمه .. وبعد ، فإنهم ألوط بقلبى

وأدنى من نفسى على قدر ما توجبه واجبة الأبوة من تقديمهم ولكنى لا أجد عندهم ما أجد عنده ولو كان ما يضطلع به يزيد فى بعيد لصار قريبا ، وفى عدو لصار حبيبا ، وسأريك فى ليلتى هذه ما يتبين به عذرى وينفسخ به اللوم . هيه ، يا غلام ! أدع لنا جساساً وزائدة وعبد الله ، وفلاناً وفلانا حتى أتى على أسماء ولده . فلم يلبث أن جاءوا فى الغلائل المطيبة والنعال السندية وذلك بعد هدأة من الليل ، فسلموا ثم جلسوا . ثم قال : يا غلام ، أدع لى يزيد . وقد أسبل سترا بينه وبين المرأة ، فإذا به قد دخل عجلا وعليه السلاح كله . فوضع رمحه بباب المجلس ثم أتى يحضر . فقال له معن : ما هذه الهيئة أبا الزبير ؟ - وكان يزيد يكنى أبا الزبير وأبا خالد - فقال : جاءنى رسول الأمير فسبق إلى نفسى أنه يريدنى لوجه ، فقلت : إن كان مضيت ولم أعرج وإن يكن الأمر على غير ذلك فَنَزْع هذه الآلة أيسر . فقال لهم (أى لأبنائه) انصرفوا فى حفظ الله . فقالت المرأة : قد تبين عذرك . فأنشد معن متمثلا :

نفسى عصام سودت عصاما ∴ وعلمته الكر والإقداما

وجعلته ملكا هماما

* * *

والغيرة بين الضرائر شىء مألوف لا تستطيع المرأة تجنبه وإن جاهدت نفسها على إخفائه .. قالت عائشة رضى الله عنها : ما غرت على امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما غرت على خديجة لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها وثنائه عليها . والرجل يغار على ابنته من أن تكون لها ضرة وليس ذلك مما ينافى طبيعة البشر ويجانبها فلقد غار رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته فقال وهو على المنبر :

إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم على بن أبي طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما هي بضعة منى يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها

* * *

وقد تكون الغيرة بين الضرائر على شاكلة الملاحاة والتراشق فقد حدث أن عائشة بنت طلحة حجت في السنة التي حجت فيها سكينة بنت الحسين بن على وكانت ضرتها عند مصعب بن الزبير ، وكانت أحسن منها ثقلا (متاعا) وآلة ، فقال حاديها :

عائش يا ذات البغال الستين ∴ لا زلت ما عشت كذا تحجين

وشق ذلك على سكينة فنزل حاديها فقال :

عائش هذى ضرة تشكوك ∴ لولا أبوها ما أهتدى أبوك

فأمرت عائشة حاديها أن يكف .

(ب) الطلاق

إذا انتهى الخلاف بين الزوجين إلى الطلاق فإن الإسلام جعل المعروف هو المبدأ الأخلاقى الذى ينبغى أن يسود بينهما ، فقال سبحانه :

* الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . (٢٢٩ سورة البقرة) .

* وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين . (٢٤١ سورة البقرة) .

* * *

ولقد كان الرجل فى الجاهلية يطلق امرأته وامرأته تطلقه .. فمن طلاق المرأة للرجل أنها كانت تغير باب خبائها فيدرك الرجل عند قدومه أنها طلقته ، كما يدرك ذلك أيضا إذا امتنعت عن تقديم الطعام له . وكان الرجل يطلق الثلاث بالتفريق ويدل على ذلك قول الأعشى وقد هدده أهل امرأته بالضرب أو يطلقها ، فقال :

أيا جارتى بينى فإنك طالقه ∴ كذاك أمور الناس غاد وطارقه

فقالوا : ثانية ، فقال :

وبينى فإن البين خير من العصا ∴ وإلا ترى له فوق رأسك بارقه

فقالوا : ثالثة ، فقال :

وبينى حصان الفرج غير ذميمة ∴ وموموقه قد كنت فينا ووامقة

* * *

وعندما يهم الرجل بأن يطلق زوجته فإنه يجد من أهله وأهلها من يحاول إعادة الوئام بينهما عملاً بقوله تبارك وتعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فأبعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيرا » (٣٥ سورة النساء) ..

وربما نهضت الأم بمهمة الصلح والتوفيق كما فعلت أم النحيف وهو سعد بن قرط أحد بنى جُذَيمة وكان قد تزوج امرأة نهته أمه عنها فأراد أن يطلقها فلم ترض امه وحذرته ونصحته بأن يصبر عليها إلى أن تموت .. فقالت :

لعمرى لقد أخلفت ظنى وسؤتنى ∴ فحزت بعصيانى الندامة فاصبر
ولاتك مِطْلاقا ملولا وسامح الـ ∴ ـقرينة وافعل فعل حر مشهر
فقد حزت بالورهاء أخبث خبثة ∴ فدع عنك ما قد قلت يا سعد واحذر
تربص بها الأيام علَّ صروفها ∴ سترمى بها فى جام متسعر

* * *

ومن النساء من يطلب الطلاق لا لسوء خلق أو إملاق ولكن لمرض لا يرجى منه برء .. فتبلغ المرأة من الإشفاق على زوجها أن تطلب طلاقها حتى لا تكون عبئا على حياته بمرضها .. ذلك ما فعلته زوجة المتوكل الليثى فقال :

طربت وشاقنى يا أم بكر ∴ دعاء حمامة تدعو حماما
فبت وبات همى لى نجيا ∴ أعزى عنك قلبا مستهاما

ثم يقول :

أبى قلبى يهوى سواها ∴ وإن كانت مودتها غراما
ينام الليل كل خلى هم ∴ وتأبى العين منى أن تناما

أراعي التـــاليـــات من الثـــريا ∴ ودمع العين ينســجم انسـجـامـا
على حين ارعـويت وكـــان رأسي ∴ كـأن على مـفــارقــه الثـغــامـا
سـعى الواشـون حتى أزعـجـوهـا ∴ ورث الحـبل فـانجـذم انجـذامـا

* * *

وطُبِعَ بعض الناس على التزويق والتزييف حين يأتي خاطب لابنتـهم فيصفون له العروس كم هي صناع جميلة الخلق مرضيـة الطباع . فإذا ما بني بها فوجيء بانهيار قصر السعادة الذي مُوِّه عليه .. وذلك ما وقع فيه أبو الأسود الدؤلي.. فقد كان يجلس إلى فناء امرأة بالبصرة فيتحدث إليها وكانت بَرْزة جميلة فقالت له : يا أبا الأسود هل لك في أن أتزوجك فإني صناع الكف حسنة التدبير قانعة بالميسور ؟ قال : نعم . فجمعت أهلها ثم تزوجته ، فوجدها بخلاف ما قدر فأسرعت في ماله ومدت يدها إلى خيانته وأفشت سره . فغدا على من كان حضر تزويجه إياها فسألهم أن يجتمعوا عنده ففعلوا .. فقال لهم :

أرأيت امـــــــرأً كنت لـم أبلـه ∴ أتاني فـقـــال اتخــذني خليــلا
فــخـــاللتــــه ثم أكــرمـــتــــه ∴ فلم أسـتـفـد من لدنه فـتـيـلا
وألفــيـــتــــه حين جــربتــــه ∴ كـذوب الحديث سـروقـاً بخـيـلا
فـــذكـــرته ثم عـــاتبـــتــــه ∴ عـتـابك رفـيـعـاً وقـولا جـمـيـلا
وألفـيـتـه غـيـر مُـسْـتَـعْـتب ∴ ولا ذاكـــــر الله إلا قـليـــــلا
ألـيس حــقــيــقــاً بتـوديعـه ∴ واتبـــاع ذلك صــرمـــا طويلا

فقالوا : بلى والله يا أبا الأسود . فقال : تلك صاحبتكم وقد طلقتها وأنا أحب أن أستر ما أنكرته من أمرها . فانصرفت معهم ..

وتنزع أبصار بعض الرجال إلى نساء ذوات دلال وجمال فيستهويهم ما هن عليه من الملاحة والفتنة .. فكيف يعلل الرجل لزوجته زواجه من إحداهن ؟ أيقول لها إنه قد مل طول عشرتها ؟ أيقول لها إنه يريد أن ينوع ففى التنويع عفاء من السأم وإنقاذ من الملل ؟ ذلك ما فعله الأعشى .. فقد كانت عنده امرأة من قومه يقال لها أم الجلال فطالت مدتها عنده فأبغضها ثم خطب امرأة يقال لها جَزْلة ، فقالت : لا ، حتى تطلق أم الجلال . فطلقها وقال فى ذلك :

تقادم ودك أم الجلال ∴ فطاشت نبالك عند النضال

وطال لزومك لى حقبة ∴ فرثت قوى الحبل عند الوصال

وكان الفؤاد بها معجبا ∴ فقد أصبح اليوم عن ذاك سالى

فبعض العتاب فلا تهلكى ∴ فلا لك فى ذاك خير ولا لى

ولما بدا لى منها البذا ∴ ء صبحتها بثلاث عجال

ثلاث خرجن جميعا بها ∴ فخليتها ذات بيت ومال

إلى أهلها غير مخلوعة ∴ وما مسها عندنا من نكال

فحنى حنينك واستيقنى ∴ بأنا اطرحناك ذات الشمال

وأن لا رجوع فلا تكذبيـ ∴ ـن ما حنت النيب إثر الفصال

ولا تحسبى أننى قد ندمـ ∴ ـت كلا وخالقنا ذى الجلال

فقالت له أم الجلال : بئس والله بعل الحرة وقرين الزوجة المسلمة أنت ! أعددت طول الحرمة والصحبة ذنباً تسبنى به وتهجونى له .. ثم دعت عليه أن يبغضه الله إلى زوجته التى اختارها ، وفارقته .. فلما انتقلت جزلة إليه ودخل بها لم يحظ عندها وتركته وتنكرت له واشتد شغفه بها ، فقال فيها :

حـيـيـا جـزلة مني بالسلام ∴ درة البحر ومصباح الظلام
لا تصـدي بعـد ود ثابت ∴ واسمعي يا أم عبسي من كلامي
إن تدومي لي فـوصلي دائم ∴ أو تهمي لي بهَجْر وانصرام
أو تكوني مـثل برق خُلَّب ∴ خادع يلمع في عُرض الغمام
أو كتخييل سراب معرض ∴ بفـلاة أو طروق في المنام
فـاعلمي إن كنت لما تعلمي ∴ ومتى ما تفعلي ذاك تلامي
بعد ما كان الذي كان فلا ∴ تتبعي الإحسان إلا بالتمام
واذكري الوعد الذي واعدتني ∴ ليلة النصف من الشهر الحرام
لاتناسي كل ما أعطيـتني ∴ من عـهود ومواثيق عظام
راجـعي الوصل وردي نظرة ∴ لا تلجي في طمـاح وأثام
وإذا أنكرت مني شـيـمة ∴ فلقـد ينكر ما ليس يُذام
فـأذكريها لي أزل عنها ولا ∴ تسفحي عينيك بالدمع السجّام
وأرى حـبلك رثا خَلَقا ∴ وحبالي جدداً غير رمام
ورأت جـسمي عليه كَبْرة ∴ وصروف الدهر قد أبلت عظامي
وهي بيضاء على منكبها ∴ قطط جعد وميال سُحامي
وإذا تضحك تبدي حببا ∴ كرضاب المسك في الراح المدام
كملت ما بين قرن فـإلى ∴ موضع الخلخال من تحت الخِدام
وأراها اليوم قد احدثت ∴ خلقا ليس على العهد القُدام

وإذا كان الأعشى قد جرى وراء نزواته وطلق امرأته فإن محمد بن يسير الخارجي أبى أن يقترف هذا الاثم .. ذلك أنه كان متزوجا من ابنة عمه فخطب امرأة من قومه فقالت المرأة : طلق امرأتك حتى أتزوجك . فأبى وانصرف عنها وقال فى ذلك :

أأطلب الحسن فى أخرى وأتركها ∴ فذاك حين تركت الدين والحسبا

هى الظعينة لا يرمى برمتها ∴ ولا يفجعها ابن العم ما اصطحبا

وما خلوت بها يوماً لتعجبنى ∴ إلا غداً أكثر اليومين لى عجبا

* * *

وربما بلغ سوء الطوية بالمرأة أن تود الخلاص من زوجها لا بالطلاق فحسب بل بكارثة يفقد فيها حياته .. وربما علم الزوج بما تكنه له من بِغْضَة فهو آنئذ فى حال من أمرين إما أن يطلقها أو يقتلها .. فيذكر أن صخر بن الشريد أخو الخنساء خرج فى غَزَاةٍ فقاتل فيها قتالاً شديداً فأصابه جرح رغيب (واسع) . فمرض فطال مرضه وعاده قومه فقال عائد من عواده يوما لامرأته سلمى : كيف أصبح صخر ؟ قالت : لا حيا فيرجى ولا ميتا فينسى . فسمع صخر كلامها فشق عليه وقال لها : أنت القائلة كذا وكذا ؟ قالت : نعم ، غير معتذرة إليك .. ثم قال عائد آخر لأمه : كيف أصبح صخر اليوم ؟ قالت : أصبح بحمد الله بخير ما رأينا سواده بيننا ، فقال صخر :

أرى أم صخر ما تمل عيادتى ∴ وملت سليمى مضجعى ومكانى

وماكنت أخشى أن أكون جنازة ∴ عليك ومن يغتر بالحدثان

فأى امرىء ساوى بأم حليلة ∴ فلا عاش إلا فى أذى وهوان

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ∴ وقد حيل بين العير والنزوان

فلما أفاق عمد إلى سلمى فعلقها بعمود الفسطاط (الخيمة) حتى فاضت نفسها ثم نكس فمات .

* * *

والغيرة كما ذكرنا من قبل تسبب صراعات محتدمة بالأسرة قد لا يطفئها إلا الطلاق وذلك إذا عجز الرجل عن أن يقيم اعوجاج امرأته . وقد حدث ذلك لعمرو بن شاس فقد كانت امرأته تغار من عطفه على ابن له من أمة سوداء يقال له عرار كانت تعيره به وتؤذيه . فزجرها مرارا ولكنها لم ترعو فطلقها .. ثم عاد فراجع نفسه وتسرعه وقال :

أرادت عـــرارا بالهـــوان ومن يرد ∴ عرارا لعمرى بالهوان فقد ظلم
فإن كنت منى أو تريدين صحبتى ∴ فكونى له كـالسـمن ربت له الآدم
وإن كنت تهوين الفراق ظعينتى ∴ فكونى لى كالذئب ضاعت له الغنم
وإلا فسيرى مثلما سار راكب ∴ تجشم خمسا ليس فى سيره أمم
وإن عـرارا وإن يكن ذا شكيـمـة ∴ تقاسينها منه فما أملك الشيم
وإن عـرارا إن يكن غيـر واضح ∴ فإنى أحب الجون ذا المنكب العمم

* * *

وترحل الزوجة بعد طلاقها والناس فى أمرها صنفان : ففريق يحمد عشرتها التى قضتها معه ويندم على ما اقترف فى حقها ، وفريق يحمد الله أن تخلص من شرورها التى كانت تحشوها فى وجه حياته . هذا الفريق قد يتجمل فى ذمها ، وقد يفحش ويسف ويذكرها بأخس النعوت وقد تفعل المرأة المطلقة مثل ذلك ..

حدث محمد بن زياد الأعرابى قال : « قامت امرأة عروة بن الورد

العبسى فى نادى قومه بعد أن طلقها فقالت : أما والله إنك للضحوك مقبلا السكوت مدبرا ، خفيف على ظهر الفرس ثقيل على متن العدو ، رفيع العماد ، كثير الرماد ، ترضي الأهل والجانب .. قال : فتزوجها رجل بعده فقال : اثنى على كما أثنيت عليه . قالت : لا تحوجنى إلى ذلك فإنى إن قلت ، قلت حقا ، فأبى ، فقالت : إن شملتك الالتفاف ، وإن شربتك الاشتفاف ، وإنك لتنام ليلة تخاف وتشبع ليلة تضاف ..

وحدث أبو عمرو بن العلاء قال : تزوج من بنى غدانة بامرأة من جَعْدة ثم وقع بين الحيين ما حمله على فراقها فمسه من ذلك غم وأحزان فلما اعتزمت الرحيل قال : استمعى ويستمع من حضر : أما لقد اعتمدتك برغبة وعاشرتك بمحبة ولم أجد عليك زلة ولم تدخلنى لك قلة ، وإن كان ظاهرك لسرورا وباطنك للهوى ولكن القدر غالب وليس له صارف .. فقالت له المرأة : أثنيت ومثنية ، فجزيت من صاحب ومصحوب خيرا . فما استربت خيرك ولا شكوت ضيرك ولا تمنت نفسى غيرك ، وما ازددت إلا شرها ولا أحسست فى الرجال لك شبها .. ثم افترقا ..

وحدث أبو شفقل قال : قال لى الفرزدق يوما : امض بنا إلى حلقة الحسن فإنى أريد أن أطلق النوار . فقلت : إنى أخاف عليك أن تتبعها نفسك ويشهد عليك الحسن وأصحابه . فقال : امض بنا . فجئنا حتى وقفنا على الحسن فقال : كيف أصبحت يا أبا سعيد ؟ فقال : بخير ، كيف أصبحت يا أبا فراس ؟ قال : تعلمن أن النوار منى طالق ثلاثا . فقال الحسن وأصحابه : قد سمعنا . قال : فانطلقنا ، قال : فقال الفرزدق : يا هذا إن فى قلبى من النوار شيئا . فقلت : قد حذرتك . فقال :

ندمت ندامة الكُسَعى لما ∴ غدت منى مطلقة نوار
وكنت كفاقىء عينيه عمدا ∴ فأصبح لا يضىء له النهار
وما فارقتها شبعا ولكنى ∴ رأيت الزهد يأخذ ما أعار
وكانت جنتى فخرجت منها ∴ كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أنى ملكت يدى ونفسى ∴ لكان على للقدر الخيار

* * *

ومن الذين أسفوا على طلاق زوجاتهم أبو قطيفة غير أن كان خبيثاً فى أسفه فقد قال :

فيا أسفا لفرقة أم عمر ∴ ورحلة أهلها نحو العراق
فليس إلى زيارتها سبيل ∴ ولا حتى القيامة من تلاقى
وعل الله يرجعها إلينا ∴ بموت من حليل أو طلاق
فأرجع شامتا وتقر عينى ∴ ويجمع شملنا بعد افتراق

* * *

والبون بعيد بين هذا القول وقول قيس بن ذريح الذى شقى فؤاده بعد طلاق لبنى ، فقد قال :

يقولون لبنى فتنة كنت قبلها ∴ بخير فلا تندم عليها وطلق
فطاوعت أعدائى وعاصيت ناصحى ∴ وأقررت عين الشامت المتخلق
وددت وعين الله أنى عصيتهم ∴ وحملت فى رضوانها كل موبق
وكلفنى خوض البحر والبحر زاخر ∴ أبيت على أثباج موج مغرق
كأنى أرى الناس المحبين بعدها ∴ عصارة ماء الحنظل المتفلق
فتنكر عينى بعدها كل منظر ∴ ويكره سمعى بعدها كل منطق

ومن النساء من يغيظها أن يتزوج مطلقها مع أنه لا أمل لها في العودة إليه .. ولقد قال أحد الحجازيين فى امرأة طلقها ثم علم أنها حقدت عليه عند سماعها بزواجه :

خبروها بأننى قد تزوجـ ∴ ـت فظلت تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختها ولأخرى ∴ جزعا ليته تزوج عشرا
وأشارت إلى النساء لديها ∴ لا ترى دونهن للسر سترا
وا لقلبى كأنه ليس منى ∴ وعظامى كأن منهن فترا
من حديث نمى إلى فظيع ∴ جِلْتُ فى القلب من تلظيه جمرا

* * *

وقد يعمد بعض الرجال إلى هُجْر القول وساقطه يهجو به من طلقها ليشهر بها وأولئك أخس الناس خلقا وأسفلهم سخيمة .. على أننا لن نمثل لهؤلاء الناس إلا بما لا يخرج إلى بذىء القول وسيئه .. لقد رأى رجل فى طلاقه لزوجته راحة لقلبه فقال :

رحلت أنيسة بالطلاق ∴ وعتقت من رق الوثاق
بانت فلم يألم لها ∴ قلبى ولم تبك المآقى
ودواء ما لا تشتهيـ ∴ ـه النفس تعجيل الفراق
لو لم أرح بفراقها ∴ لأرحت نفسى بالإباق
وخصيت نفسى لا أريـ ∴ ـد حليلة حتى التلاقى

وآخر طلق امرأته ثم صور دمامتها وقبحها فقال :

اصـرمـينى يا خلقـة المجـدار ∴ وصلينى بطول بعـــد المزار
فلقـد سـمتنى بوجـهك والوصـ ∴ ـل قـروحـاً أعـيت على المسـبـار
ذقـن نـاقـص وأنـف غـلـيـظ ∴ وجـبين كـسـاجـة القطار
طال ليلى بهـا فـبت أنادى ∴ يالثـارات مـسـتـضـاء النار
قـامـة الفـصـعل الضـئيل وكف ∴ خنصـراها كـذينقـا قـصـار

(ساجة = خشبة ، القطار = الصيرفى ، الفصعل = عقرب صغير ، ذينقا = مدقة ، قصار = صباغ) .

غــروب

١ - بكاء الأبناء

ومهما كان الشوق عارما والقلب بالوجد مفعما ، وكانت النفس واجفة هلعة فإنه بالصبر والمطاولة قد يخفف المرء مما به من حنين على أمل اللقاء والاجتماع ثانية . غير أن هناك أمراً لايجدى معه صبر الأمل ذلك لأن الغائب لن يعود أبد الدهر ولا يطمع أحد فى سفرته التى لا رجعة منها .. ولا يحدث هذا غيرُ الموت خاتمة المطاف لكل كائن حى . وخير ما نبدأ به غروب الموت هو حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وفاة ولده إبراهيم .. ورسول الله هو الأسوة الحسنة فى فرحة وترحه ، فى سروره وحزنه .

وما كان الناس يعتقدون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى لفقد ولده ، ولكنه بشر يبكى لما يُبكى البشر .. قالوا له وقد دمعت عيناه : يا رسول الله ، تبكى وأنت رسول الله ؟ قال : إنما أنا بشر ، قد تدمع العين ويخشع القلب ولا نقول ما يسخط الرب ، إنما هذا رحم ومن لا يرحم لا يرحم . إنما ننهى الناس عن النياحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه . ثم قال : لولا أنه وعد جامع وسبيل متتابع وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجداً غير هذا .. وإنا عليه لمحزونون ..

إحساس إنسانى فى أسمى صوره وأكرمها ، وهداية نبوية تهدى الناس إلى ما يجمل بهم أن يتوخوه فى أحزانهم ومصائبهم ..

وعلى سنة محمد صلى الله عليه وسلم سار عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه عندما مات ابنه عبد الله ، فقد خطب الناس فقال : « الحمد لله الذى جعل الموت حتماً واجباً على عباده فسوى فيه بين ضعيفهم وقويهم ورفيعهم ودنيهم فقال تبارك وتعالى : « كل نفس ذائقة الموت » فليعلم ذوو النهى منهم أنهم صائرون إلى قبورهم مفردون بأعمالهم » .

* * *

ولقد صور أحمد حسن الزيات [1] إحساسه قبل أن يرزق بولده « رجاء » ومشاعره بعد أن رزق به .. ثم أحزانه بعد أن اختطفه الموت وهو طفل غض الإهاب .. فقال قبل أن يولد « رجاء » : « كنت فى طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أنشد الراحة ولا أجد الظل ، وأفيض المحبة ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا أجد الأنس ، وأكسب المال ولا أجد السعادة ، وأعالج العيش ولا أدرك الغاية . كنت كالصوت الأصم لا يرجِّعه صدى ، وكالروح الحائر لا يُقرُّ هدى ، وكالمعنى المبهم لا يحدده خاطر » ..

وقال بعد أن ولد : « شغل رجاء فراغى كله ، وملأ وجودى كله ، حتى أصبح شغلى ووجودى ، فهو صغيراً أنا ، وأنا كبيراً هو ، يأكل فأشبع ، ويشرب فأرتوى ، وينام فأستريح ، ويحلم فتسبح روحى وروحه فى إشراق سماوى من الغبطة لا يوصف ولا يحد » ..

ثم قال فى موته : « إن قلبى ينزف من عينى عبرات بعضها صامت وبعضها معوِل ! فهل لبيان الدمع ترجمان ، ولعويل الثاكل ألحان ؟ إن اللغة كون محدود فهل تترجم اللانهاية ؟ وإن الآلة عصب مكدود فهل تعزف الضَّرَم الوارى ؟ إن من يعرف حالى قبل رجاء وحالى معه ، يعرف حالى

---

١ - كاتب مصرى معاصر ، من مقال بعنوان : « ولدى » ص ٢٨٨ ، كتاب « وحى الرسالة » سنة ١٩٤٧

بعده !! أشهد لقد جزعت عليه جزعاً لم يغن فيه عزاء ولا عظة ! كنت أنفر ممن يعزينى عنه لأنه يهينه ، وأسكن إلى من يباكينى عليه لأنه يُكْبره ، وأستريح إلى النادبات يندبن القلب الذى مات والأمل الذى فات والمَلَك الذَى رفع » .

* * *

ذلك إحساس الأب نحو طفله ، فماذا يكون إحساس الأب نحو أبناء غيره من الناس ؟ .. كيف تكون مشاعر محمد صلى الله عليه وسلم نحو من فقد ابنه من صحابته وهو الذى أرسل رحمة للعالمين ؟ ..

كتب عليه السلام إلى معاذ بن جبل معزيا له بابنه يقول : « من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل ، السلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .. أما بعد ،

فعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر ورزقنا وإياك الشكر . ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية وعوارفه المستودعة ، تمتع بها إلى أجل معدود وتقبض لوقت معلوم .. ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى ، والصبر إذا ابتلى . وكان ابنك من مواهب الله الخيرة وعوارفه المستودعة متعك به فى غبطة وسرور وقبضه منك بأجر كثير : الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين أن يحبط جزعك صبرك فتندم على ما فاتك . فلو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه .. واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ولا يدفع حزنا فأحسن الجزاء وتنجز الموعود وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد ... » .

وعلى هذا النمط المحمدى احتذى الكتاب والأدباء فى كتابات التعزية

بالأبناء مع تفاوت الأسلوب الأدبى الذى كان يشكله التطور الفكرى والبلاغى .. فمن إنشاء الشيخ [1] جمال الدين بن نباته فى التعزية بولد :

« وأحسن عزاءه بأعز فقيد وأحب حبيب ووليد ، وعوض بجميل الصبر جوانحه التى سئلت عن الأسى فقالت : ثابت ويزيد . صدرت هذه المفاوضة تهدى إليه سلاما يعز عليه أن يتبع وثناء يشق عليه أن يطارح حمام شجنه المطربة بحمائم الشجو المبكية المنكية وتوضح لعمله ورود مكاتبته المؤلمة وموقفنا عليها . إلا أن الدمعة ما وقفت وخواطر الإشفاق عليه وعلى من عنده طفت حرقها وما انطفت ، وعلمنا ما شرحه ولم يشرح الصدر على العادة - من وفاة الولد فلان سقى الله عهده ولحده ، ونضر وجهه وتغمد بالرضوان خاله وخده وما بقى إلا التمسك بأسباب الصبر والتفويض إلى من له الأمر .

والدنيا طريق والآخرة دار ودهليزها القبر ، وللمرء من تثبته وازع والاجتماع بالأحبه الراحلين واقع . إن لم يصيروا إلينا صرنا إليهم وإن لم يقدموا فى الدار الفانية علينا قدمنا فى الدار الباقية عليهم . نسأل الله أن يجمعنا فى مستقر رحمته ويحضرنا مع الأطفال أو مع المتطفلين ولائم جنته والله تعالى يدارك بالصبر الجميل قلبه ولا يجمع عليه فقد الثواب وفقد الأحبة » .

وتلك رسالة رجل صنعة غلبت عليه الصيغ البلاغية المتكلفة .. وعلى تلك السنة كتب الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى معزيا بطفل كانت لوالديه فيه آمال ، وآمال - فقال : « .. رزقه الله ثباتاً على رزيته وصبرا ، وجعل له مع كل عسر يسرا وأبقاه مفدى بالأنفس والنفائس وكان له أعظم حافظ من نوب الدهر وأجل حارس .

---

١ - صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٢٨٥ .

المملوك ينعى علمه بهذه النازلة التى فتنت القلوب والأكباد وكادت أن تفرق بين الأرواح والأجساد وأذالت ذخائر العيون وابتذلت المهج تحرقا وتلهبا وجعلت كل قلب فى نار الأسى والأسف متقلبا ، وهى وفاة ولده الذى صغر سنه وتزايد لفقده هم المملوك وحزنه : ولكن على قدر المخيلة والأصل وكان الأمل يحدث بأنه يشد للمولى أزره ويشرح ببره صدره ويؤثل مجده ويبقى الدهر الجميل بعده . ففقد من بين أترابه وذويه عندما أينع غصن شبابه وغيب منظره الوسيم فى لحده وترابه وسيدنا يعلم أن الموت منهل لابد من وروده وابن آدم زرع لابد من حصده ، وأن المنية تشمل الصغير والكبير والجليل والحقير والغنى والفقير .. فينبغى له استعمال صبره والاستبشار بمضاعفة أجره والله يمتعه بأهله وطول عمره » ..

* * *

على أن صدق الإحساس لا يتعلق بطول التعزية أو قصرها فقد تغنى عبارة عن صفحات ، وتغنى كلمة عن رسالات :

* قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطفل يجر بأبويه إلى الجنة » .

* وقال عليه الصلاة والسلام : « من مات له اثنان من الولد فقد احتظر بحظار من النار » .

* * *

وللشعر فى هذا المقام منزلته فالعاطفة فيه تثير المشاعر وتؤجج انفعالات الأسى والحزن ومن ثم فنحن نعرض لبعض نفوس أصابها الحزن لموت أحبائها صغارا .. وبين كل نفس وأخرى فروقاً فى المشاعر والخواطر وتعكس هذه الفروق ولاشك أصداء الأحزان على شاعرية الشاعر حين يصور

أحزانه وإن كنا لا نستطيع أن نغمط دور القلم الصناع فى إحكام التصوير والقدرة على الآداء .

فبشار بن برد يرثي ولده الصغير بقوله :

أجـارتنا لا تجـزعى وأنيـبى ∴ أتانى من الموت المطل نصيـبى
بُني على رغمى وسخطى رزئته ∴ وبدل أحجـاراً وجـال قليب
وكان كريحان الغصون تخاله ∴ نوى بعد إشراق يسر وطيب
أصيب بنى حين أو رق غصنه ∴ وألقى على الهم كل قريب
عجبت لإسراع المنية نحوه ∴ وما كان لو مليته بعجيب

* * *

وأسامة بن منقذ يقول فى ولده أبى بكر وقد توفى صغيرا :

لهف نفسى لهلال طالع ∴ ما استوى فى أفقه حتى غرب
لو رأى ما حل بى من بعده ∴ من هموم غشيتنى وكروب
لبكى لى تحت أطباق الثرى ∴ وبكاء الميت للحى عجب
أنا ميت مثله لكنه ∴ مستريح ومماتى فى تعب

* * *

ثم تتأجج عاطفة الحزن فى قلب الشاعر الفارس فيقول :

يقولون كم هذا البكاء ولو بدا ∴ ضمير الذى بى رق لى وبكى الصخر
وكنت أظن الدمع يبرد غلتى ∴ إلى أن بدا لى أن دمع الأسى جمر
أبا بكر ما وجدى عليك بمنقض ∴ طوال الليالى ما انقضى اليوم والشهر
أطلت على الليل حتى كأنما ∴ زمانى ليل كله ماله فجر
وإنى لأستدعى الكرى وها نافر ∴ به من جفونى أن يلم به ذعر
لعل خيالاً منك يطرق مضجعى ∴ فأشكو إليه ما رمانى به الدهر

وإن الإيمان بقضاء الله والأمل فى اللقاء يوم القيامة لما يشفى الصدور ويخفف من وطأة الأحزان ، قال الشعر محمود سامى [1] البارودى يرثى ولده :

بكيت عليا إذ مضى لسبيله ∴ بعين تكاد الروح فى دمعها تجرى
وإنى لأدرى أن حزنى لايفى ∴ برزئى ولكن لا سبيل إلى الصبر
وكيف أذود القلب عن حَرّاته ∴ وأهون ما ألقاه يصدع فى الصخر
يلوموننى أنى تجاوزت فى البكا ∴ وهل لامرىء فى الحزن من عذر ؟
إذا المرأ لم يفرح ويحزن لنعمة ∴ وبؤس فلا يرجى لنفع ولا ضر
وما كنت لولا قسمة الله فى الورى ∴ لأصبر لكنا إلى غاية نسرى
لقد خفف البلوى وإن هى أشرقت ∴ على النفس ما أرجوه من موعد الحشر

* * *

وتتبدى أمام أنظارنا صورة بلغت الذؤابة فى دقة الملامح والسمات وحيوية التعبير . تلك هى الصورة التى يعرضها علينا الشاعر ابن الرومى فى رثاء ولده وقد جاء فيها :

بكؤكما يشفى وإن كان لا يجدى ∴ فجودا فقد أودى نظيركما عندى
ألا قاتل الله المنايا ورميها ∴ من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتى ∴ فلله كيف اختار واسطه العقد
على حين شمت الخير من لمحاته ∴ وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره ∴ بعيداً على قرب قريبا على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها ∴ وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه ∴ فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله ∴ إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد

---

١ - شاعر مصرى (١٨٣٨ - ١٩٠٤) .

وظل على الأيدى تساقط نفسه ∴ وينوى كما ينوى القضيب من الرند
فيالك من نفس تساقط أنفسا ∴ تساقط در من نظام بلا عقد
عجبت لقلبى كيف لم ينفطر له ∴ ولو أنه أقسى من الحجر الصلد

بهذا صور الشاعر كيف اختار حمام الموت ضحيته ، وكيف نفذ فيها أمره وأنهى قضاءه .. ثم أخذ يصور حالته النفسية بقوله :

وأولادنا مثل الجوارح أيها ∴ فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لايسد اختلاله ∴ مكان أخيه من جزوع ولاجلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه ∴ أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى
لعمرى لقد حالت به الحال بعده ∴ فياليت شعرى كيف حالت به بعدى
ثكلت سرورى كله إذ ثكلته ∴ وأصبحت فى لذات عين أخا زهد
إريحانة العينين والأنف والحشا ∴ ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به ∴ وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدى
أعينى جودا لى فقد جدت للثرى ∴ بأنفس مما تسألان من الرِّفد
كأنى ما استمتعت منك بضمة ∴ ولاشمة فى ملعب لك أو معهد
ألام لما أبدى عليك من الأسى ∴ لقلبى إلا زاد قلبى من الوجد

* * *

أما إحساس الأم نحو ولدها الذى فقدته فإنه يختلف فى الدرجة عن إحساس الأب .. رثت السلكة أم السليك – وهى أمة سوداء – ابنها السليك وكان أحد صعاليك العرب العدائين ، فقالت :

طاف يبغى نجوة ∴ من هلاك فهلك
ليت شعرى ضلة ∴ أى شىء قتلك
أمريض لم تعد ∴ أم عدو ختلك

أم تــولــى بـك مـــــــــــــا ∴ غـــــال فـى الـدهـر الـسـلـك
والمنايا رصـــد للفــتـــا ∴ حـــيـــث ســـلـــك
أى شــيء حــــــــســـن ∴ لـفــــتـى لـم يـك لـك
كـل شــيء قـــــاتـل ∴ حـين تـلـــقـى أجـلـك
طال مـــا قـــد نلت فى ∴ غـــيـــر كـــد أملك
إن أمـــراً فـــادحـــاً ∴ عن جـــوابى شـــغـلك
ســـأعـــزى النفس إذ ∴ لـم تجـب مـن ســـألـك
ليت صــبـــرى ســـاعـــة ∴ صـــبـــره عنك ملك
ليت نـفـــســى قـــدمت ∴ لـلــمـنـايـا بـدلـك

لكن حزن الأم لا يضاهيه حزن إذا فقدت ولدين كريمين شجاعين يتطلعان للمجد ويتشوفان لبعد الصيت وحسن الأحدوثة .. ذلك ما كانت عليه عمرة الخثعمية التى رثت ولديها بقولها :

لقد زعـمـوا أنى جـزعت عليهـمـا ∴ وهل جــزع أن قلت وابأباهـمـا
هما أخوا فى الحرب من لا أخاً له ∴ إذا خـاف يومـاً نبـوة فـدعـاهمـا
همـا يلبسـان المجد أحسن لُبْسـة ∴ شحيحان مـا اسطاعا عليه كلاهما
شـهـابان منا أوقـدا ثم أخـمـدا ∴ وكـان سنى للمـدلجين سناهـمـا
إذا نزلا الأرض المخوف بها الردى ∴ يخفض من جأشيهما منصلاهما
إذا استـغنيا حب الجميع إليهما ∴ ولم ينأ من نفع الصديق غناهـمـا
إذا افتقرا لم يجثما خشية الردى ∴ ولم يخش رزأمنهـمـا مـوْليـاهمـا
لقد سـاءنى أن عنَّست زوجتاهـمـا ∴ وعـريت بعـد الوجى فـرسـاهمـا
ولن يلبث العرشان يستل منهمـا ∴ خيـار الأواسى أن يميل غمـاهمـا

وإحساس الأب الشيخ بفقد ابنه يكون ممضا ومؤلما غاية الألم لاسيما إذا كان يرى فيه درعه التى تقيه صروف الزمان وهو فى شيخوخته ، يقول طريف بن وهب العبسى فى رثاء ابنه :

أرابع مهلاً بعض هذا وأجملي ∴ ففى اليأس ناه والعزاء جميل
فإن الذى تبكين قد حال دونه ∴ تراب وزو راء المكان دحول
نحاه للحد زبرقان وحارث ∴ وفى الأرض للأقوام قبلك غول
وأى فتى واروه ثمت أقبلت ∴ أكفهم تحثى معا وتهيل
وظلت به الأرض الفضاء كأنما ∴ تصعد بى أركانها وتجول
وشد إلى الطرف من كان طرفُهُ ∴ بعهد عبيد الله وهو كليل
لئن كان عبد الله خلى مكانه ∴ على حين شيبى بالشباب بديل
لقد بقيت منى قناة صليبة ∴ وإن مس جلدى نهكة وذبول
وما حالة إلا ستصرف حالها ∴ إلى حالة أخرى وسوف تزول

* * *

ألا إن موت الولد طامة كبرى ورزء شديد يصيب أفئدة الآباء بالحسرة والجزع .. ولقد وصف عبيد الله بن أبى بكرة لرجل ما يخلفه موت كل فرد من أفراد الأسرة فى القلوب من أثر - وذلك عندما سأله رجل قائلا : ما تقول فى موت الوالد ؟ قال : ملك حادث ، قال فموت الزوج ؟ قال : عرس جديد ، قال : فموت الأخ ؟ قال : قص الجناح ، قال : فموت الولد ؟ قال : صَدْعٌ فى الفؤاد لا يجبر .

٢ - بكاء البنت

وفقد البنت يضنى الفؤاد .. ويقلل الرقاد .. ويورث السهاد ، ولا يكون المحزون فى حال من الأسى أقل مما لو فقد ولدا . فالولد والبنت سواء عند والديهما فى الإعزاز والمحبة .. لا يبخل القلب عليهما بالدموع ولا يضن عليها القلم بالكلمات الأسيفة المعبرة عن وجدان محروب ..

قال أبو سعيد اسحق بن خلف يرثى ابنة أخته وكان قد تبناها :

أمست أميمة معمورا به الرجم ∴ لقى صعيد عليها التراب مرتكم
ياشقة النفس إن النفس والهة ∴ حرى عليك ودمع العين منسجم
قد كنت أخشى عليها أن تقدمنى ∴ إلى الحمام فيبدى وجهها العدم
فالآن تمت فلاهم يؤرقنى ∴ يهدا الغيور إذا ما أودت الحرم
للموت عندى أياد لست أنكرها ∴ أحيا سرورا وبى مما أتى ألم

* * *

وقد يتفق أن يفقد الأب ابنته وهو بعيد عنها .. ففى مثل هذا الحال يكون جزع الأب عنيفا وأساه يملأ جوانحه بالحزن وعيناه بالدمع ..

ماتت ابنة أسامة بن منفذ بشيزر ، وهو غائب بدمشق فقال فيها :

ويح الغريبة والديار ديارها ∴ لم ترتحل عنا ولم تتغرب
ماتت غريبة وحدة من تربها ∴ وشقيقها ومن العمومة والأب
فهى الوحيدة والأقارب حولها ∴ وهى الوحيدة فى المحل الأقرب
فإذا تضرم فى الجوانح ذكرها ∴ قال الأسى بالله يا عين اسكبى

ومن كلام ابن أبى نضال المغربى فى التعزية ببنت :

« الشيخ فلان عزاه الله على احتسابه وجعل الثواب المرتقب أفضل اقتنائه واكتسابه معزية عن فلذة كبده ومساهمة فى أرقه وسهده . والفات فى عضد صبره الجميل وجلده فلان . فإنى كتبته - كتب الله لكم خيرا يذهب جزعكم وحسن منجاكم بالتفدى ومنزعكم - عندما وصلنى وفاة ابنتكم المرحومة نفعها الله بإيمانها وتلقاها بروح الجنة وريحانها وهى أعزك الله - وإن آلمك فقدها وأوجعك أن استأثر بها لحدها فليعزك عنها مصابنا بنبينا عليه السلام وعلمك بأن جميعا بمدرجة الحمام .. أفتجد على الأرض خالدا وقديما ثكلنا وليدا نجيبا ووالدا . فمن خلق للفناء واختلس بمر الساعات والآناء جدير أن يتعظ بنفسه ولا يحزن لذهاب من ذهب من ذوى أنسه . فاحمد الله عز وجل إذ رجحت ميزانك وضمنت لك يوم المعاد جنانك والله عز وجل يرزقنا احتسابا جميلا وصبراً يؤنسك وقد اختار لك الصبر قبرا ويعظم لك ثوابا جزيلا على مصابك وأجرا ، ويعم فقيدتك بالرحمى ويسكب على جدثها مزنها الأوكف الأهمى ويؤويك إلى كنفه الأعظم الأحمى بمنه ورحمته ، لا رب غيره والسلام عليكم ورحمة الله بركاته ..

٣ - بكاء الأخ

وقد يختطف الزمان بمعوله أخاً ليترك القلوب حسرى والنفوس ظمأى لرؤيته والأسماع شوقى لكلمة منه .. ويحدث فقدان الأخ تيارات من الأسى فى أخلاد المحيطين به ، فما يحسه شقيقه غير ما تحسه شقيقته ، وما يعتمل فى صدر ابن عمه غير ما يتنزى فى صدر ابنة عمه .. وهكذا ..

وكذلك تختلف أساليب التعبير باختلاف الرُّقىِّ البيانى والفكرى .. فمن قول أبى خراش الهذلى فى رثاء أخيه :

حمدت آلهى بعد عروة إذ نجا ∴ خراش وبعض الشر أهون من بعض

فوالله ما أنسى قتيلا رزئته ∴ بجانب قُوسَى ما مشيت على الأرض

على أنها تعفو الكلوم وإنما ∴ نوكل بالأدنى وإن جل ما يمضى

ولم أدر من ألقى عليه رداءه ∴ على أنه قد سل عن مجاهد محض

ولم يك مثلوجَ الفؤاد مهيجا ∴ أضاع الشباب فى الربيلة والخفض

ولكنه قد نازعته مجاوع ∴ على أنه ذو مرة صادق النهض

* * *

ورثى متمم بن نويرة أخاه مالكا برثاء سمعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : هذا والله التأبين ، لوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيداً بمثل ما رثيت به أخاك . فقال متمم : لو كان أخى مات على ما مات عليه أخوك ما رثيته . فقال عمر : ما عزانى أحد عن أخى بمثل ما عزانى به متمم .. قال متمم :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ∴ من الهدر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ∴ لطول اجتماع لم نبت ليلة معا
وعشنا بخير فى الحياة وقبلنا ∴ أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فإن تكن الأيام فرقن بيننا ∴ فقد بان محمودا أخى يوم ودعا

* * *

لكن ماذا يقول من فقد ثمانية إخوة ؟ أن أبا حِنَاك البراء الفقعسى فقد هذا العدد من إخوته فقال فى رثائهم :

أبعد بنى أمى الذين تتابعوا ∴ أرجى الحياة أم من الموت أجزع
ثمانية كانوا ذؤابة قومهم ∴ بهم كنت أعلى ما أشاء وأمنع
أولئك إخوان الصفاء رزئتهم ∴ وما الكف إلا إصبع ثم إصبع
لعمرك إنى بالخليل الذى له ∴ على دلال واجب لمفجع
وإنى بالمولى الذى ليس بنافعى ∴ ولا ضائرى فقدانه لممتع

* * *

وربما ظن بعض الناس أن موت الأخ الشقيق يثير فى النفس كمدا وغما أكثر من الآخر غير الشقيق .. بيد أن حب الأخ لأخيه لا يقيم وزنا لدرجة صلة الدم التى يقيس بها الناس صافى الحب ومدخوله .. فهذا هو النابغة الذبيانى يرثى أخاه من أمه فيقول :

لا يهنىء الناس ما يرعون من كلاء ∴ وما يسوقون من أهل ومن مال
بعد ابن عاتكة الثاوى على أمر ∴ أمسى ببلدة لا عم ولا خال
سهل الخليقة مشاء بأقدحه ∴ إلى ذوات الذُّرا حمال أثقال
حسب الخليلين نأى الأرض بينهما ∴ هذا عليها وهذا تحتها بالى

وحزن المرأة لفقد أخيها ربما كان أشد ضراماً وأقسى إيلاما لوجدانها ومشاعرها ..

نطالع وصف الإخاء الجميل فى قول صفية الباهلية حين رثت أخاها بقولها :

كنا كغصنين فى جرثومة سمقا ∴ حينا بأحسن ما يسمو له الشجر
حتى إذا قيل قد طالت فروعهما ∴ وطاب فيآهما واستنظر الثمر
أخنى على واحدى ريب الزمان وما ∴ يبقى الزمان على شىء ولا يذر
كنا كأنجم ليل بينها قمر ∴ يجلو الدجا فهوى من بيننا القمر

* * *

ورثت زينب بنت الطثرية أخاها يزيد بن الطثرية وقد قتل فى خلافة بنى العباس .. رثته فارساً .. كريما .. شريفا ، فقالت :

أرى الأثل من بطن العقيق مجاورى ∴ مقيما وقد غالت يزيد غوائله
فتى قُدَّ قد الصخر لامتضائل ∴ ولا رهل لباته وأباجله
إذا نزل الأضياف كان عذورا ∴ على الحى حتى تستقل مراجله
مضى وورثناه دريس مفاضة ∴ وأبيض هنديا طويلا حمائله
وقد كان يروى المشرفى بكفه ∴ ويبلغ أقصى حجرة الحى نائلة
كريم إذا لاقيته متبسما ∴ وإما تولى أشعث الرأس جافلة

* * *

وتحتل الخنساء مكانا مبرزا بين الراثين والراثيات .. فلشعرها صدى فى النفوس التى ثكلت أحباءها وأعزاءها .. لقد بكت وأشجت ببكائها كل من

سمعها .. ورغم أن « صخرا » كان أخاها لأبيها إلا أن الإعزاز قد ملك الفؤاد وسيطر ..

قال لها عمر بن الخطاب يوما وقد رأى ندوباً في وجهها : ما هذا يا خنساء ؟ فقالت : من طول البكاء على أخوى . فقال لها : أخواك في النار . فقالت : ذلك أطول لحزنى وإن كنت أبكيهما من الثأر فأنا اليوم أبكيهما من النار » ..

فمما رثت به صخرا وفضلها به النابغة على جميع الشعراء قولها :

قذى بعينيك أم بالعين عوار ∴ أم ذرفت أن خلت من أهلها الدار
كان دمعى لذكراه إذا خطرت ∴ فيض يسيل على الخدين مدرار
تبكي لصخرهن العبرى وقد ولهت ∴ ودونه من جديد الترب أستار
تبكي خناس على صخر وحق لها ∴ إذ رابها الدهر إن الدهر ضرار

ثم وصفته بطلاً مقداما ، لا ينكص أمام عدو ، ولا يبخل أمام ضيف ، فقالت :

وإن صخراً لكافينا وسيدنا ∴ وإن صخرا إذا نشتوا لنحار
وإن صخرا لمقدام إذا ركبوا ∴ وإن صخرا إذا جاعوا لعقار
وإن صخراً لتأتم الهداة به ∴ كأنه علم في رأسه نار
حمال ألوية هباط أودية ∴ شهاد أندية للجيش جرار

وللخنساء أن تبكى صخرا هذا البكاء فقد كان باراً بها عطوفاً عليها ، شاطرها ماله مرات ومرات وفى كل مرة كان يمنحها أحسن شطر .. وحين لامته امرأته على فعله قائلة : أما كفاك أن تقسم مالك حتى تخير ؟ قال :

والله لا أمنحها شـرارها ∴ وهي حصان قد كفتني عارها

ولو أموت مزقت خمارها ∴ وجعلت من شعر صدارها

* * *

أما الرثاء وكذلك التعزية بالمنثور فنمثل لهما أولا برثاء عبد الله بن الزبير لأخيه مصعب فقد خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أتانا خبر مقتل المصعب فسررنا به واكتأبنا له ، فأما السرور فلما قدر له من الشهادة وحيز له من الثواب ، وأما الكآبة فلوعة يجدها الحميم .. وإنا والله لا نموت صهجا كميتة آل أبى العاصى ، إنما نموت والله قتلا بالرماح وقعصا تحت ظلال السيوف فإن يهلك المصعب فإن فى آل الزبير منها خلفا » ..

* * *

ونمثل للتعزية بقول أبى محمد بن عبد البر ، وقد جاء فيه :

« كتبت [1] والأنفس مرتشعة والعين غير مغتمضة والأنفاس تتصعد والأحزان تتأكد أسفاً للمصاب الذى عم وغم وأسمع نعيه فأصم وقال للفرح : كف من عنانك ، وللترح انتظر لا ، وإنك بوفاة الفرد الذى فى رأسه نور وسداد الآراء المختلفة وسداد الثغور والفذ الذى شهد الرجال بفضله وعقم النساء فما تجىء بمثله أبى فلان صنوكم الذى لا يجارى والشارق الذى لا يسارى ، والغيث الذى عم المنيل والمستنيل والليث الذى ورد زئيره والنيل فإنا لله وإنا إليه راجعون !

تسليما للقدر وإن ساء وشمل المرءوسين والرؤساء .. فياله من مصاب

---

١ - صبح الأعشى حـ ١٠ ص ٢٨٥٢

ترك كل رأس أميما وأودع صميم كل فؤاد شكلاً صحيحا . لقد أنصل السمر اللهاذم وأغمد البيض الصوارم وعطل الكتائب والمقانب وأوحش المفاوز والسباسب ولم يبق مشيد علا إلا هده ولا مديد ثناء إلا صده . ولم لا وهو الشخص يموت بموته بشر كثير ويبكيه قلم وحسام ومنبر وسرير .. وعند الله نحتسبه جميعا ونوسعه بعض الصفاء والثناء توديعا وتشييعا ونفارقه فراق الصدر خلده والمصاب جلده . فوا أسفى لرزئه ما أفضعه موقعا وواحر ليومه ما أظلمه قطعا ! وواحزناه لنعيه ما أشنعه مرأى ومسمعا !!! فلئن جرت الدموع له دما وأضمرت الضلوع له مضطرما لما أدت حقه ولا كربت ولا دانت بعض الواجب فيه ولا اقتربت . ولولا أن المنية منهل لا يخلا وارده ومعلم يهدى إليه على أهدى سمت مباعده لم يبق فى أنس مطمع ولا لحزن مستدفع . ولكن الثاكل غير ما ترى وتسمع . وما أنتم أيها الشيخ المكرم ممن ينبه على ذخر من العمل الصالح يكتسبه وصبر فى الرزء الفادح يحتسبه . فصبراً فالمنون غاية المسين والمصبحين والنبأ الذى يعلم دوما ولو بعد حين . وهو تعالى المسئول أن يرقع بمكانكم هذا الخرق المتسع ويحصل بجانبكم ذلك الشمل المتصدع » ..

٤ - بكاء الأب

والثملة التى تهد كيان الأسرة وتنذر بضياعها وزوال أمرها هى وفاة عميدها وربها .. فموت الأب يحدث فى القلوب أسى لا يساوقه أسى آخر . إنه يحدث فى بنيان الأسرة صدعا لا يُستطاع جبره وإصلاحه . فهو نكبة على الكثيرين : على الزوجة أولا ، والأبناء ثانيا ، وعلى العشيرة كلها ثالثا ..

تذكر العيون الهامعة والقلوب المرزأة حاجتها إلى عميدها الذى نأى عنها ، تذكره فى كرمه وبره وسماحة نفسه ورقة جوانحه .. وقد تذكر جسارته فى الحق وقوته على الباطل وأهله .. وقد تذكره فارسا لا يروعه خصم ولا يرجفه عدو مكابر ..

يرثيه كل قلب كان مصيره مرتهن بوجوده .. ونجد فى الرثاء وفاءً ، كما نجد فخراً وتباهيا ودعاءً ..

ورثاء عميد الأسرة يختلف باختلاف الأفئدة الجزعة والألسنة المرتجفة بالعويل والنواح .. فقد يلجم الحزن اللسان ويعقم الشاعرية الخلاقة فلا يستطيع المحزون أن يوفى الموقف حقه من التعبير والبيان . ومع ذلك فإن السليقة الشعرية قادرة على تجسيد الأسى وتصوير المأساة وكيف أضنت القلب وأترحته .. أجل ، وللنثر دوره فى هذا المقام الذى تجمل فيه التعزية وتقديم الرثاء ..

* * *

فالزوجة هى أول من يشعر بمرارة الفراق وقساوة الصدع الذى أصاب حياتها فهى ترثيه وتبكيه ذاكرة له ما كان عليه بين قومه من حميد الخصال ونقى الفعال :

قالت الهيفاء بنت صبح القضاعية ترثى زوجها :

أبكى وأبكى بإسـفـار وإظلام ∴ على فتى تغلبى الأصل ضرغام
لهفى عليه وما لهفى بنافعه ∴ ألا تكافح فرسان وأقوام
قل للجيب لحاك الله من رجل ∴ حملت عار جميع الناس من سام
أيقتل ابنك بعلى يا ابن فاطمة ∴ ويشرب الماء ؟ ذا أضغاث أحلام
والله لا زلت أبكيه وأندبه ∴ حتى تزورك أخوالى وأعمامى
بكل أسمر لدن الكف معتدل ∴ وكل أبيض صافى الحد قمقام

فهى تبكى وتندب بختها ثم تهدد وتتوعد فى نفس الآن .. وتلك كانت سنة الجاهلية فى رثائها وذكر موتاها أو قتلاها ..

* * *

وقالت امرأة من طيىء ترثى زوجها :

تأوب عينى نصبها واكتئابها ∴ ورجيت نفسا راث عنها إيابها
أعلل نفسى بالمرجم غيبه ∴ وكاذبتها حتى أبان كذابها
ألهفى عليك ابن الأشد لبهمة ∴ أقر الكماة طعنُها وضِرابُها
متى يدعه الداعى إليه فإنه ∴ سميع إذا الآذانُ صم جوابُها
هو الأبيض الوضاح لو رميت به ∴ ضواحٍ من الريان زالت هضابها

* * *

على أننا نجد هذا الرداء الجاهلى الذى يتغشى الرثاء - لانجده فى الرثاء الإسلامى الذى يأخذ من نبع القرآن الكريم ونهجه القويم ..

قالت الرباب ترثى زوجها سيد الشهداء ، الحسين بن على رضى الله عنه :

إن الذى كان نوراً يستضاء به ∴ بكربلاء قتيل غير مدفون
سبط النبى جزاه الله صالحة ∴ عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لى جبلاً صعبا ألوذ به ∴ وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن ∴ يعنى ويأوى إليه كل مسكين
والله ابتغى صهرا بصهركم ∴ حتى أغيب بين الرمل والطين

ورثاء البنت لأبيها له ملامحه وسماته التى تميزه من رثاء الزوجة لزوجها كما أنه يختلف كذلك فى عباراته بين السمات الجاهلية والسمات الإسلامية .. قالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية ترثى أباها :

ياعين بكى عند كل صباح ∴ جودى بأربعة على الجراح
قد كنت لى جبلا ألوذ بظله ∴ فتركتنى أضحى بأجرد ضاحى
قد كنت ذات حمية ما عشت لى ∴ أمشى البراز وكنت أنت جناحى
فاليوم أخضع للذليل وأتقى ∴ منه وأدفع ظالمى بالراح
وأغض من بصرى وأعلم أنه ∴ قد بان حد فوارسى ورماحى
وإذا دعت قمرية شجنا لها ∴ يوما على فنن دعوت صباحى

وقد تمثل بهذه الأبيات فاطمة الزهراء وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهما يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

ومن الرثاء ما يعين على تفريج ما قد يقع فيه الأبناء من مآزق ولئن عده البعض من غير الرثاء إلا أنه فى الرثاء أدخل وبه أشكل : وما هو الرثاء ؟ أليس بكاء مآثر من غاب عن الدنيا ؟ وذلك ما حدث لسفانة بنت حاتم الطائى حين وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن سبايا

طيء ، فقد خاطبته عليه السلام قائلة : « يا محمد ، هلك الوالد وغاب الوافد فإن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب ، فإني بنت سيد قوم .. كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ويقري الضيف ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط . أنا بنت حاتم الطائي . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا جارية ، هذه صفة المؤمن لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق » .

* * *

وقد ترثي البنت أباها في الموقف الذي يتقاضاها المنافحة عنه والدفاع عن مآثره .. ومثل هذا الموقف صادف السيدة عائشة أم المؤمنين رضوان الله عليها عندما بلغها أن قوما يخدشون سيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه . فقد أرسلت إلى جماعة من الناس فلما حضروا جعلت بينها وبينهم ستاراً ثم قالت : « أبي وما أبيه !! أبي والله لا تعطوه الأيدي . ذلك طود منيف وظل مديد هيهات ، أنجح إذ أكديتم وسبق إذ ونيتم سبق الجواد إذ استولى على الأمد . فتى قريش ناشئا وكهفها كهلا . يفك عانيها ويريش مملقها ويرأب شعبها حتى حليته قلوبها ثم استشر في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيي فيه ما أمات المبطلون . وكان رحمة الله غزير الدمعة وقيذ الجوانح شجي النشيج . فانعطفت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون به » ، « الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون » . فأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت قسيها وفوقت سهامها وامتثلوه غرضا فما فلوا له صفاة ولا قصفوا له قناة ومرَّ على سيسائه حتى إذا ضرب الدين بجرانه وألقى بركه ورست أوتاده ودخل الناس فيه أفواجا ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا اختار الله لنبيه ما عنده فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم نصب الشيطان رواقه ومد طنبه ونصب حبائله وأجلب بخيله واضطرب حبل الإسلام ومرج عهده وماج أهله وبغى الغوائل وظنت رجال أن قد أكثب نهزها ولات حين الذي يرجون وأنى والصديق بين أظهرهم ؟ فقام حاسراً مشمرا فجمع حاشيته

ورفع قطوبه فرد ريش الإسلام على غربه ولم شعثه بطبه وأقام أوده بثقافه فابذعر النفاق بوطئه وانتاش الدين فنعشه . فلما أراح الحق على أهله وقر الرءوس على كواهلها وحقن الدماء في أهُبُها أتته منيته فسد ثلمته بنظيره في الرحمة وشقيقه في السيرة والمعدلة ذلك ابن الخطاب لله أم حفلت له ودرت عليه !! لقد أوحدت به فنفح الكفرة ودبغها وشرد الشرك شذر مذر وبعج الأرض وجعها فقاء أكلها ولفظت جنينها ترأمه ويصدف عنها وتصدى له ويأباها ثم وزع فيها فيأها وودعها كما صحبها .. فأروني ما ترتابون وأي يوم أبي تنقمون ؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟

« أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » ..

* * *

والابن هو ثالث من يُنكأ جنانه بموت الأب فهو يرى فيه خلاف ما تراه الزوجة وما تراه الابنة : فهو درعه وحاميه وهو صغير ، وقائده وصديقه وهو كبير ..

قال أبو العتاهية يرثي أباه :

قلب يا قلب أو جـــعك ∴ مـا تعـدى فـضـعضك
يا أبي ضـمك الثـرى ∴ وطواك الموت أجـمعك
ليـتني يوم مت صـر ∴ ت إلى تربـه مـعك
رحم الله مصـرعك ∴ برد الله مضـجـعك

* * *

ومن قول أبي العلاء المعري في رثاء أبيه :

أبي حكمت فيـه الليالي ولم تزل ∴ رماح المنايا قادرات على الطعن
مضى ضاهر الجثمان والنفس والكرى ∴ وسهد المنى والجيب والذيل والردن
فياليت شعري هل يخف وقاره ∴ إذا صار أُحْدٌ في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروى مبادرا ∴ مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني
هنيئا لك البيت الجديد موسدا ∴ يمينك فيه بالسعادة واليمن
مجاور سكن في ديار بعيدة ∴ من الحي سقيا للديار وللسكن

ومن روائع رثاء الأب ما رثى به محمود [1] سامى البارودى والده ، فقد قال :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى ∴ طاح الردى بشهاب الحرب والنادى
مات الذى ترهب الأقران صولته ∴ ويتقى بأسه الضرغامة العادى
هانت لميتته الدنيا وزهدنا ∴ فرطُ الأسى بعده فى الماء والزاد
هل للمكارم من يحيى مناسكها ؟ ∴ أم للضلالة بعد اليوم من هادى ؟
جف الندى وانقضى عُمْرُ الجَدَا وسَرَى ∴ حكم الردى بين أرواح وأجساد
فلتمرح الخيلُ لهوا فى مقاودها ∴ ولتصدأ البيض ملقاة بأغماد
مضى وخلفنى فى سن سابعة ∴ لا يرهب الخصم إبراقى وإرعادى
تبعت نهج أبى فضلا ومحمية ∴ حتى برعت وكان الفضل للبادى
أبى ومن كأبى فى الحى نعلمه ؟ ∴ أوفى وأكرم فى وعد وإيعاد
مهذبُ النفس غراء شمائله ∴ بعيد شأو العلا طلاع أنجاد
قد كان لى وَزَرا آوى إليه إذا ∴ غاض المعين وجف الزرع بالوادى
لا يستبد برأى قبل تبصرة ∴ ولا يهم بأمر قبل إعداد
تراه أُهْبة فى كل نائبة ∴ كالليث مرتقبا صيداً بمرصاد

* * *

وإذا ذهبنا نلتمس ما عند النثر من رسائل فى التعزية بالآباء ألفينا رسالة ابن أبى الخصال تغنى عن كثير من القيل لأنها تعطينا طرازا عاما لما يقال فى هذه المناسبة .. ولئن كان صاحبها قد أنشأها فى وفاة وزير من وزراء الدولة فإنها تتضمن عبارات عامة تسطر فى التعزية عادة ..

---

١ - شاعر مصرى معاصر (١٨٣٨ - ١٩٠٤) ديوان البارودى ص ١٨٦

يقول ابن أبى الخصال معزياً بوزير : « يا سيدى [1] وواحدى ومحل الابن المبرور والأخ المشكور عندى - أعزك الله بالتقوى ورضاك بما قضى وأمدك بالنعمى وشملك بالحسنى ، كتبته - أعزك الله - وقد وصل كتابك الكريم بما نفذ فيه من القدر الذى هو فى العباد حتم وله فى كل عنق ختم فى الوزير الفقيد الشهيد أبيك .. فلان .. رحمه الله وأكرم مثواه ، وجعل الحسنى التى أعدها لأوليائه مقره ومأواه . فأسفت كل الأسف لفقدانه وقد كان عين زمانه وعدة إخوانه تغمده الله بغفرانه ونقله إلى رضوانه . وتلك أعزك الله - غاية الأحياء وسبيل الأعداء والأحباء وكان على ربنا جل وعلا حتما مقضيا ووعداً مأتيا والأسوة أعزك الله - فى غمره الفضفاض وبره الفياض وأنه ختم له بالخير والانقباض . وكان آخر ذلك الحسب القديم والجيل الكريم . وقد أمرك الخير فافعل ما أمرت وكن كما ظنك وقدرك وتركك وأنك بفضل الله تمد مده وتبلغ فى كل فضيلة حضره السابق وعده وتعد للأيام من الجد والاعتزام ما أعده . وإخوتك - أعزك الله - لك أظهار وأعضاء عز ومضاء فاشتمل عليهم وارفق بهم فإنهم ينزلونك منزلة أبيهم وتجد أخلاقه وعونه فيهم . وأمّا ما اعتقده من تكريمك وأراه من تفضيلك وتقديمك فشىء تشهد به نفسك ويدركه يقينك وحدسك أشد به اعتناء وأجمل له استواء وأوفى عنك رداء وغناء ..

جعلنا الله من المتحابين فى خلاله والمتقلبين فى ظلاله وأمننا من الزمان واختلاف أحواله بمنه والسلام » ..

١ - صبح الأعشى حـ ١٠ ص ٢٨٥٧

٥ - بكاء الأم

* قال تبارك وتعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها » (١٥ سورة الأحقاف) ..

* وجاء رجل إلى رسول الله صلى عليه وسلم فقال : « يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك .

فسبحانه وتعالى وصى بالوالدين ثم بدأ بالأم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جعل للأم المقام الأعلى والبر الأوفى ولا غرابة فى ذلك فالأم مما لا ينكر أحد فضلها ، ولا يمارى أحد فيما أسدته للإنسان من نعمة : فمن ثديها بنى جسده ، ومن حنان قلبها عمر قلبه ، ومن إرادتها وفكرها تكونت اللبنات الأولى لإرادته وفكره .. ومهما كبر الإنسان وعلت مراتبه وعظم شأنه فإنه يظل طفلاً إلى جوار أمه .. فإذا توفيت فإن الزوج هو أول من يشق عليه فقدها .. فَقْد من شاركته حياته فى كل أحوالها وصروفها .. أجل ، تجول بخاطره كل لمحة من لمحاتها وكلمة من كلماتها ونبرة من نبرات صوتها ..

يقول جرير فى رثاء زوجته :

لولا الحياء لزادنى استعبار ∴ ولزرت قبرك والحبيب يزار
نعم الخليل وكنت علق مضنة ∴ ولدىً منك سكينة ووقار
لن يلبث القرناء أن يتفرقوا ∴ ليل يكر عليهم ونهار
صلى الملائكة الذين تخيروا ∴ والصالحون عليك والأبرار

ورثى مسلم بن الوليد زوجته بقوله :

حنين ويأس كيف يتفقان ∴ مقيلاهما فى القلب مختلفان
غدت والثرى أولى بها من وليها ∴ إلى منزل ناء لعينيك دانى
فلا وجد حتى تنزف العين ماءها ∴ وتعترف الأحشاء بالخفقان

* * *

ويصور مُوَيْلك المزموم حزنه على زوجته أم العلاء التى توفيت وتركت وليدها فى حاجة إلى عنايتها ورعايتها ، فيقول :

أمرر على الجدث الذى حلت به ∴ أم العلاء فنادها لو تسمع
أنى حللت وكنت جد فَروُقة ∴ بلداً يمر بها الشجاع فيفزع
صلى عليك الله من مفقودة ∴ إذ لا يلائمك المكان البلقع
فلقد تركت صغيرة مرحومة ∴ لم تدر ما جزع عليك فتجزع
فقدت شمائل من لزامك حلوة ∴ فتبيت تسهر أهلها وتفجع
وإذا سمعت أنينها فى ليلها ∴ طفقت عليك شؤن عينك تدمع

* * *

وتتضاعف الأحزان بمضاضتها وقسوتها حين تصطلح أرزاء الغربة والموت .. وذلك ما عاناه البارودى حين توفيت زوجته وهو بالمنفى فقال فى محنته تلك :

يا دهر فيم فجعتنى بحليلة ∴ كانت خلاصة عدتى وعتادى
إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها ∴ أفلا رحمت من الأسى أولادى
أفردتهن فلم ينمن توجعا ∴ قرحى العيون رواجف الأكباد
لو كان هذا الدهر يقبل فدية ∴ بالنفس منك لكنت أول فادى

أو كـان يرهب صـولة من فـاتك ∴ لفـعلت فـعل الحـارث بن عـبـاد
لكنها الأقدار ليس بناجع فيها ∴ سوى التسليم والإخلاد

* * *

ونجد عند أبى العلاء رثاء لأمه صاغة فى أسى عميق وحب لها عميق كذلك ، فهو يقول :

سمعت نعيها صمى صمام ∴ وإن قال العواذل لاهمام
وأمتنى إلى الأجداث أم ∴ يعز علىَّ أن سارت أمامى
وأكبر أن يرثيها لسانى ∴ بلفظ سالك طُرْق الطعام
يقال فيهتم الأنياب قول ∴ يباشرها بأنباء عظام
كأن نواجذى رديت بصخر ∴ ولم يمرر بهن سوى كلامى
ومن لى أن أصوغ الشهب شعرا ∴ فألبس قبرها سِمْطى نظام
مضت وقد أكتهلت فخلت أنى ∴ رضيع ما بلغت مدى الفطام
فياركب المنون أما رسول ∴ يبلغ روحها أرج السلام
ذكيا يصحب الكافور منه ∴ بمثل المسك مفوض الختام

* * *

ويعلم الأقرباء والأصدقاء بموت الزوجة فيرثون لحال الزوج المكلوم ومنهم من يبعث برسالة تعزية تكون أليق بمقام الزوجة وأسكن لقلب الزوج ..

كتب أبو محمد بن [1] عبد البر فى إحدى تعزياته بالزوجة ، يقول : « وقد تقرر عند ذوى الألباب وثبت ثبوتاً لا يعلل بالارتياب أن الدنيا قنطرة

---

١ - صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٢٨٧.

دائرة ومعبرة إلى الآخرة وأن ساكنها وإن طال عمره وطار فى الخافقين أمره ، لديغ سمها وصريع سهمها فما تضحك إلا لتبكى ولا تؤنس إلا لتنكى وقد نفذ القدر الذى ماله رد ولا منه بد بوفاة فلانة ألحقها الله رضوانه وأسكنها بفضله المرجو جنانه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون !! تأسيا بالسلف الصالح وتسليا عن ماء الدمع السائح وزند القلب القارح . وعند الله تحتسبها عقيلة معدومة المثيل مفقودة الدين والعلة فى هذا الجيل ، متحلية من دعاء الفقراء وثناء الصلحاء بالعزة الشادخة والتحجيل ، لقد ذهب لذهابها الرفق والحنان وعدم لعدمها الشيم البرة والأخلاق الحسان وإن فقدها لخرق لا يرقع وغلة لا تنقع وخطب لا يزال الدهر فيصدع .. ولولا العلم بأن اللحاق بها أمر كائن وأن المخلف فى الدنيا لا محالة عنها بائن وأن التنقل للآخرة ننفك نسمعه ونعاين لما بقيت صبابة دمع إلا ارفضت ولا دعامة صبر إلا انقضت ولكان الحزن غير ما تسمع وترى والوجد فوق ما يجرى وجرى . لكن لا معنى لحزن يقع فيه الاشتراك ولا وجه للأسف على ما لا يصح فيه الاستدراك . وما أنتم بحمد الله ممن يذكر بما هو فيه أقدر ولا ممن ينبه على ما هو بالتنبيه أخلق وأجدر . ولولا أن التعازى مما اطرد به العمل وسنة الصالحين الأول لما سلك سبيله معكم وأنتم ممن قدر الأمور حق قدرها وعلم أن الحياة لو طالت فالموت أثرها وإذا لم يكن من الموت بد ولم يمنع منه صد ولا سد فالصبر خير من الجزع وأدل على كرم المنحى والمنزع والأخرى أن يكون الثواب جزيلا والجزاء حسنا جميلا ، والله يبقيكم أتم البقاء ويرقيكم أتم الارتقاء » .

* * *

وقد تكون التعزية بالزوجة على نسج الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى

حيث قال : « لما علم [1] مملوك المجلس السامى أطال الله بقاءه وأعظم أجره وأحسن عزاءه وفاة السيدة المرحومة سقى الله عهدها عهداً يبل الثرى وجعل الرحمة لمن نزلت به لها القرى تألم لفقدها غاية الألم ووجد حرقة كسته ثوبى ضنى وسقم وحزنا لا يعبر عنه بعبارة بيانه ولا يستوعب وصفه بلسان قلمه وبنانه ..

ولو كان النساء كمن فقدنا ∴ لفضلت النساء على الرجال

والمولى أولى من عزى نفسه واستحسن رداء الصبر ولبسه وعلم أن الموت غريم لا ينحى منه كثرة المطال ولا يدافع بالإطلاب والإبطال وأنه إذا طالب بذمه كان ألد الخصام وإذا حارب فعل بيده مالا تفعله الكماة بحد الحسام » ..

* * *

وكذلك يتقدم النثر بدوره فى التعزية بوفاة الأم متوخيا ذكر الأسى والأسف وما أصاب القلوب من حرقة وجزع .. ونمثل للتعزية بوفاة الأم برسالة لأبى محمد بن عبد البر المغربى فقد جاء فيها :

« ما مات [2] من أنت بعده خلف والكل فى البعض غير ممتنع

كتب عبده القن من الأسى لأجله بعض ما يجن المنطوى على قلب تطمئن القلوب سلوا ولا يطمئن ، فلان : بعد وصول كتابه الكريم بصدع يصمى القلوب ويقد أقوياء القلوب ويترك الأحباب مصرعين على الجنوب فوقف العبد عليه مترقرق المدامع متحرق الأضالع رائيا سامعا سجا الأبصار وأسى المسامع فيا أسفى لخطب ضعضع ركن الجسد وكان وثيقا وصَوَّح روض الفضل وكان وريقا ونفض حسن الصبر ولم يزل صديقا وترك العبد خليقا

---

١ ، ٢ - صبح الأعشى ص ٢٨٧ .

بهذا القول ومثله معه حقيقا ، فآه لدين ومروءة فقدا فى قرن وعلى صون وعفاف أدرجا فى كفن وحصان رزان لا تعرف بوصمة ولا تزن ، لقد أصم بها الناعى وإن كان أسمع وأرى ما شاء الفؤاد وأرق المدمع ولم يبق قلبا للصبر إلا صدعه ولا أنفا للسلو إلا جدعه ولا بابا للتعزى إلا أرتجه ولا عقيما للتأسف إلا أنتجه ولو قبل فى الموت فدا وصح أن يؤخذ فيه فداء لما خلص إليكم ولا ألم ، ولا عداكم فى صروف المنايا المخيفة سلم لكن أبى الله إلا أن تعم الحرقة وتستولى على الوقت الفرقة » ..

* * *

رثاء أبناء العم

وإذا أصاب ابن عم خيراً فرح له أبناء عمه جميعا .. وإذا أصيب بمكروه فكأنما أصابهم القرح جميعا

فها هوذا العُجَيز السلولى - من شعراء بنى أمية - رثى ابن عمه فقال باكيا مشيداً ببسالته وكرمه :

تركنا أبا الأضياف فى ليلة الصبا ∴ يمر ويردى كل خصم يجادله
تركنا فتى قد أيقن الجوع أنه ∴ إذا ماثوى فى أرحل القوم قاتله
فتى قد قد السيف لا متضائل ∴ ولا رهل لباته وأباجله
إذا جد عند الجد أرضاك جده ∴ وذو باطل إن شئت أرضاك باطله
يسرك مظلوما ويرضيك ظالما ∴ وكل الذى حملته فهو حامله
إذا نزل الأضياف كان عذورا ∴ على الحى حتى تستقل مراجله

* * *

وهذا حِزازُ (١) بن عمرو أخو بنى عبد مناة يرثى زيد الفوارس وعمرا وغيرهما من بنى عمه :

تبكى على بكر شربت به ∴ سفها تَبَكِّيها على بكر
هلا على زيد الفوارس زَيْـ ∴ ـدِ اللات أو هَلاَّ علىَ عَمْرو
تبكين لارقأت دموعك أوْ ∴ هلا على سلفى بنى نصر
خلَّوْا علىَّ الدهر بعدهُمُ ∴ فبقيت كالمنصوب للدهر
إن الرزية ما أولاكِ إذا ∴ هرَّ المخالع أقدُح اليسر
أهل الحلوم إذا الحلوم هفت ∴ والرف فى الأقوام والنُّكرِ

* * *

---

١ - شاعر جاهلى

وقد لا يُرْثى ابن عم ابن خال بل تُرْثى العشيرة كلها فَيُبْكى على ما كان لها من فتية شجعان وشيوخ عقلاء .. وعلى ما كان لها من عز تقوض وانهار ، قالت ريطة [1] بنت عاصم تبكى عشيرتها :

وقفت فأبكتنى بدار عشيرتى ∴ على رزئهن الباكيات الحواسرُ
غدوْا كسيوف الهند ورُّاد حومة ∴ من الموت أعيا وِرْدهن المصادر
فوارس حاموا عن حريمي وحافظوا ∴ دار المنايا والقنا متشاجر
ولو أن سلمى نالها مثلُ رزئنا ∴ لهدت ولكن تحملُ الرزء عامر
كأنهم تحت الخوافق إذ غَدَوْا ∴ إلى الموت أسد الغابتين الهواصرُ

---

١ - شاعرة جاهلية

هـ

كلمات .. وفكاهات

١

غــــرام

قيل لرجل من العرب كان يجمع الضرائر : كيف تقدر على جمعهن ؟ قال : كان لنا شباب يصابرهن علينا ، ثم كان لنا مال يصبرهن لنا ، ثم بقى لنا خلق فنحن نتعاشر به ونتعايش .

* * *

شيخ متصاب

قال الرحيم العبدى :

كنا ولا تعــصى الحليلة بعـلهـا ∴ فاليوم تضربه إذا ما هو عصى

ويقلن بعـداً لـلشـيـوخ سـفـاهة ∴ والشـيخ أجدر أن يُـهاب ويُتـقى

* * *

نار جهنم

قال الشاعر المصرى إسماعيل صبرى (١٨٥٤ - ١٩٢٣) :

يا مـن تزوج باثـنتين ألا اتـئـــد ∴ ألقـيت نفسك واقـعاً فى الهـاوية

مـا العـدل بين الضـرتين بممكن ∴ لو كنت تعـدل ما أخـذت الثانيـة

* * *

طويلة اللسان

ذكر أنه كان لمسكين الدارمي امرأة من منْقَرْ وكانت فاركاً كثيرة الخصومة والمشاجرة فجازت به يوما وهو في نادي قومه ينشد قوله :

إن كنت مسكينا فما قصرت ∴ قدرى بيوت الحي والجدر

فوقفت تسمع منه حتى إذا بلغ إلى قوله :

نارى ونار الجار واحدة ∴ وإليه قبلى ينزل القدر

فقالت : صدقت والله يجلس جارك يطبخ قدْرَه فتصطلى بناره ثم ينزلها فيجلس فيأكل وأنت بحذائه كالكلب فإذا شبع أطعمك . أجل والله إن القدر لتنزل إليه قبلك .. فأعرض عنها ومر في قصيدته حتى بلغ فيها إلى قوله :

ما ضر جارلى أجاوره ∴ ألا يكون لبابه ستر

فقالت له : أجل ، إن كان له ستر هتكته. فوثب إليها يضربها ، وجعل قومه يضحكون منهما .

* * *

العين بالعين

ذكر أنه كان لجندل بن الراعي امرأة من عقيل وكان بخيلا فنظر إليها يوما وأنشأ يقول :

عقيلية أما أعالى أعطافها ∴ فعوج وأما لحمها فقليل

فقالت العقيلية مجيبة له :

عقيلية حسناء أزرى بحسنها ∴ طعام لديك ابن الرعاء قليل

فجعل جندل يسبها ويضربها وهي تقول : قلت فأجبت ، وكذبت وصدقت ، فما أغضبك ؟

تستحق كسر رأسها

ذكر أن الشماخ [1] تزوج امرأة من سليم فأساء إليها وضربها وكسر يدها فعلقت به بنو سليم يطالبونه بظُلاَمة صاحبتهم فأنكرها . فقالوا : احلف ، فجعل يطلب إليهم أن يدفعوا عنه اليمين ويغلظ أمرها وشدتها عليه ليرضوا بها منه حتى رضوا . فحلف لهم وقال :

ألا أصبحت عرسى من البيت جامحا ∴ بغير بلاء أى أمر بدا لها
على خَيْرة كانت أم العرس جامح ∴ فكيف وقد سقنا إلى الحى مالها
سترجع غضبى نزرة الحظ عندنا ∴ كما قطعت فينا بليل وصالها
أتتنى سليم قضها وقضيضها ∴ تُمسِّحُ حولى بالحضيض سبالها
يقولون لى يا احلف ولست بحالف ∴ أخاتلهم عنها لكيما أنالها
ففرجت هم الناس عنى بحلْفة ∴ كما شقت الشقراء عنها جلالها

* * *

عجوز متصابية

نظر شيخ من الأعراب إلى امرأته تتصنع وهى عجوز فقال :

عجوز ترجب أن تكون فتية ∴ وقد لحب الجنبان واحدودب الظهر
تدس إلى العطار سلعة بيتها ∴ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر
وما غرنى إلا خضاب بكفيها ∴ وكحل بعينيها وأثوابها الصفر
وجاءوا بها قبل المحاق بليلة ∴ فكان محاقا كله ذلك الشهر

---

١ - مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام .

فقالت له امرأته :

ألم تـر أن الناس تحلـب علبــة ∴ ويتـرك ثلب لا صراب ولا ظهـر

ثم استغاثت بالنساء وطلب الرجال فإذا هم خلوف فاجتمع النساء عليه فضربنه .

* * *

يوم حــزين

هجرها زوجها في يوم ميلادها فترجم العقاد حديث نفسها فقال :

مــــولدى يـوم شـــقـــائى ∴ مــــات فـى المهــد رجـــائى

لـيس فـى قـلـبى عـــــزاء ∴ أين فــى الدنـيـــا عـــــزائى

* * *

حكمة شــيخ

شكا الفرزدق امـرأته فـقـال له شيخ من مُضَـر كـان أسن منه : أفـلا تكسعها بالمحرجات (يعنى الطلاق) فقال : قاتلك الله ! ما أعلمك من شيخ !

* * *

أجمل ليلة

قال خالد بن صفوان : ما بت ليلة أحب إليّ من ليلة طلقت فيها نسائى فأرجع والستور قد هتكت ومتاع البيت قد نقل فتبعث إليّ إحداهن بسُلَيْلَةٍ مع ابنتى فيها طعامى وتبعث إلى الأخرى بفراش أنام عليه .

أحلى من ليلة العرس

قال شاعر :

بت بخسف فى شر منزلة ∴ لا أنا فى لذة ولا فرسى
هذا على الخسف لا قضيم له ∴ وأنا ذا لايسوغ لى نفسى
تجهزى للطلاق وارتحلى ∴ ذاك دواء الجوامح الشُّمُسِ
ليلتى حين بنت طالقة ∴ ألذ عندى من ليلة العرس

* * *

سامحهم الله

قيل لامرأة كانت تُطَلَّقُ كثيرا : ما بالك تطلقين ؟ قالت : يريدون التضييق علينا ضيق الله عليهم .

* * *

ليت أيامه تعود

ذكر أن أعرابيا طلق زوجته فتزوجها الأخطل وكان الأخطل قبل ذلك قد طلق امرأته فبينما هى معه إذ ذكرت زوجها الأول فتنفست فقال الأخطل :

كلانا على هم يبيت كأنما ∴ بجنبيه من مس الفراش قروح
على زوجها الماضى تنوح وإننى ∴ على زوجتى الأخرى كذاك أنوح

* * *

ضربته فطلقها

يروى أن عمار ذى كبار كانت له امرأة يقال لها دومة بنت رباح وكان

يُكْنيها أم عمار وكانت تخلقت بخلته فى شرب الشراب والمجون والسفه حتى يدخل الرجال إليها وتجمعهم على الفواحش ثم حجت فى إمرة يوسف بن عمر ، فقال لها عمار :

اتقى الله قد حججت فتوبى ∴ لا يكونن ما صنعت خبالا
ويك يا دوم لا تدومى على الخمـ ∴ ـر ولا تدخلى عليك الرجالا
إن بالمصر يوسفا فاحذريه ∴ لا تصيرى للعاملين نكالا
وثقيف إن ثقفتك بحد ∴ لا يساوى الإهاب منك قبالا

فضربته دومة وقالت : أتجعلنى غرضا لشعرك ؟ فطلقها واشترى جارية حسناء فزادت فى أذاه وضربته غيرة عليه فشكاها إلى يوسف بن عمر . فوجه إليها بخدم من خدمه وأمرهم بضربها وكسر نبيذها وإغرامها ثياب عمار . ففعلوا ذلك وبلغوا منها الرضى لعمار ، فقال فيها :

إن عرسى لا فداها اللـ ∴ ـه بنت لرباح
كل يوم تفزع الجلا ∴ س منها بالصياح
كلب دباغ عقور ∴ هر من بعد نباح
ولها لون كداجى الليـ ∴ ـل من غير صباح
ولسان صارم كالسيـ ∴ ـف مشحوذ النواحى
يقطع الصخر ويفريـ ∴ ـه كما تفرى المساحى
عجل الله خلاصى ∴ من يديها وسراحى
تتعب الصاحب والجا ∴ ر وتبغى من تلاحى

* * *

لذة الإغضاب

قال الأصمعى : عاتب أعرابى ابنه فى شرب النبيذ فلم يعتب وقال :

أمن شربة من ماء كرم شربتها ∴ غضبت على الآن طاب لى الخمر
سأشرب فاغضب لارضيت كلاهما ∴ إلى لذيذ أن أعـــقك والسكر

* * *

ارجع إلى أصلك

قال محمد بن نصر الله الدمشقى الأنصارى (٥٤٩ هـ) .. يهجو أباه :

وجنبنى أن أفعل الخير والد ∴ ضئيل إذا ما عد أهل التناسب
بعيد من الحسنى قريب من الخنا ∴ وضيع مساعى الخير جم المعايب
إذا رمت أن أسمو صعودا إلى العلا ∴ غدا عرقه نحو الدنية جاذبى

* * *

ما كسبناه من صلة الرحم !!

كان لبشار أخوان يقال لأحدهما بشر والآخر بشير ، وكانا قصابين وكان بشار باراً بأخويه على أنه كان أضيق الناس صدرا متبرما بكل أحد ، فكان يقول : اللهم إنى قد تبرمت بنفسى وبالناس جميعا ، اللهم فأرحنى منهم . وكان إخوته يستعيرون ثيابه فيوسخونها وينتنون ريحها ، فاتخذ قميصا له جيبان وحلف ألا يعيرهم ثوبا من ثيابه . فكانوا يأخذونها بغير علمه فإذا دعا بثوبه قلبه فأنكر رائحته يقول إذا وجد رائحة كريهة من ثوبة : أينما أتوجه ألق سعدا . فإذا أعياه الأمر خرج على الناس فى تلك الثياب على نتنها ووسخها فيقال : ما هذا يا أبا معاذ ؟ فيقول : هذا ثمرة صلة الرحم !!

شك مضحك

ذكر أن عبد الله بن سالم المعروف بابن الخياط كان له ابن عاق يقال له يونس . فقال يونس لأبيه يوما :

ما زال بى مازال بى ∴ طعن أبى فى النسب
حتى تربيت وحتى ∴ ساء ظنى بأبى

ونشأ ليونس ابن يقال له دُحَيْم فكان أعق الناس بأبيه فقال يونس فيه :

جلا دحيم عماية الريب ∴ والشك منى والطعن فى نسبى
مازال بى الظن والتشكك ∴ حتى عقنى مثل ما عققت أبى

وحكى يونس قال : جئت يوما إلى أبى وهو جالس عند أصحاب له فوقفت عليه لأغيظه . وقلت ألا أنشدكم شعراً قلته بالأمس : قالوا : بلى ، فأنشدتهم :

يا سائلى من أنا ومن يناسبنى ∴ أنا الذى ما له أصل ولا حسب
الكلب يختال فخراً حين يبصرنى ∴ والكلب أكرم منى حين ينتسب
لو قال لى الناس طراً أنت ألأمنا ∴ ما وهم الناس فى ذاكم ولا كذبوا

فوثب أبى ليضربنى فعدت بين يديه فجعل يشتمنى والناس يضحكون .

* * *

أبو العبر

حكى جحظة قال : رأيت أبا العبر بسرمن رأى وكان أبوه شيخا صالحا وكان لا يكلمه فقال له بعض إخوانه : لم هجرت ابنك ؟ فقال : فضحنى كما

تعلمون بما يفعله بنفسه ثم لا يرضى لذلك حتى يهجنني ويضحك الناس مني . فقالوا : وأي شيء من ذاك وبماذا هجّنك ؟ قال : اجتاز عليَّ منذ أيام ومعه سُلمٌ فقلت له : إيش هذا معك ؟ فقال : لا أقول لك . فأخجلني وأضحك بي من كان عندي . فلما كان بعد أيام اجتاز بي ومعه سمكة ، فقلت له : إيش تعمل بهذه ؟ فقال : أتزوجها . فحلفت أني لا أكلمه أبدا ..

* * *

حلم أشعب

ذكر أن أشعب قال لأمه : رأيتك في النوم مطلية بعسل وأنا مطلي بعذرة . قالت : يا فاسق ! هذا عملك القبيح أراكه الله عز وجل . قال : إن في الرؤيا شيئاً آخر . قالت : وما هو ؟ قال : رأيتني الطعك (الحسك) وأنت تلطعينني . فقالت : لعنك الله يا فاسق .

* * *

مفاوضات صعبة

كان لعَثْمَة بنت مطرود البَجَلية ، وكانت ذات عقل ورأي مستمع في قومها ، أخت يُقال لها خود ، ذات جمال وعقل . وإن سبعة إخوة من بني عامد ، بطن من الأزد ، خطبوا خوداً إلى أبيها ، أتوه وعليهم الحُلل اليمانية وتحتهم النجائب ، فقالوا : نحن بنو مالك بن عُقَيْلة ذي النحيين . فقال لهم : انزلوا على الماء . فباتوا على الماء ليلتهم ، ثم أصبحوا غادين في تلك الحلل والهيئة ومعهم ربيبة لهم يقال لها الشَعْثاء كاهنة ، فمروا بوَصيدها يتعرضون لها وكلهم وسيم جميل . وخرج أبوها فجلسوا إليه فرحب بهم فقالوا : بلغنا أن لك ابنة ونحن شباب كما ترى ، وكلنا يمنع الجانب ، ويمنح الراغب فقال أبوها كلكم خيار ، فأقيموا نرى رأينا ، ثم دخل على بنته

فقال : ما ترين ؟ فقد أتاك هؤلاء القوم . فقالت : أنكحنى على قدرى ولا تُشْطِطْ فى مهرى ، فإن تخطئنى أحلامُهم لا تُخْطِئنى أجسامُهم ، لعلى أصيبَ ولدا وأكثِر عددا . فخرج أبوها فقال : أخبرونى عن أفضلكم . قالت ربيبتهم الشعثاءَ الكاهنة : اسمع أخْبِرْك عنهم . هم إخوة ، كلهم إسوة ، أما الكبير فمالك ، جرىء فاتك ، يتعب السنابك ، ويستصغر المهالك ، وأما الذى يليه فالغَمْرُ ، بَحْرٌ غَمْرٌ ، يقصر دونه الفخر ، نَهْدٌ صقر . وأما الذى يليه فعلقمة ، صليب المعجمة ، منيع المشتمة ، قليل الجمجمة ، وأما الذى يليه فعاصم ، سيد ناعم ، جَلْدٌ صارم ، أبى حازم ، جيشه غانم ، وجاره سالم ، وأما الذى يليه فثواب ، سريع الجواب ، عتيد الصواب ، كريم النصاب ، كليث الغاب . وأما الذى يليه فمُدْرِك ، بذول لما يملك ، عزوف عما يترك ، يُغْنى ويُهْلِك . وأما الذى يليه فجندل ، لقرْنه مُجَدِّل ، مُقِلّ لما يحمل ، يعطى ويبذل ، وعن عدوه لا ينكل . فشاورت أختَها فيهم ، فقالت أختها عثمة ، ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدَّخلُ . اسمعى منى كلمة ، إن شر الغريبة يُعْلَنَ وخيرها يدْفن أنكحى فى قومك ولا تغررك الأجسام . فلم تقبل منها . وبعثت إلى أبيها أنكحنى مدركا . فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورُعاتها . وحملها مدرك فلم تلبث عنده إلا قليلا حتى صبحتهم فوارس من بنى مالك بن كنانة فاقتتلوا ساعة ، ثم إن زوجها وإخوته وبنى عامد انكشفوا فسبوها فيمن سبوا . فبينا هى تسير إذ بكت فقالوا : ما يبكيك ؟ أعلى فراق زوجك ؟ قالت : قبحه الله . قالوا : لقد كان جميلا . قالت : قبَّح الله جمالا لا نفع معه . إنما أبكى على عصيانى أختى ، وقولها : ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل . وأخبرتهم كيف خطبوها . فقال لها رجل منهم يكنى أبا نُواس ، شابٌ أسود أفوه مضطِّرب الخَلْقِ : أترضين بى على أن أمنعك من ذئاب العرب ؟ فقالت لأصحابه : أكذلك هو ؟ قالوا : نعم إنه مع ما تَرَيْن لمنيع الحليلة ،

وتتقيه القبيلة . قالت : هذا أجمل جمال ، وأكمل كمال . قد رضيت به . فزوجوها إياه .

* * *

العـزوبة أفضـل

قال أعرابى :

يمنٌّ عليَّ بـالتـزويـج شـيـخى ∴ وفى التـزويج لـى هم وشُـغْلُ

وكنت من الـهـمـوم رَضِىً بال ∴ فـحل من الهـمـوم علـىَّ ثِقْل

فـقـلت له مننت بغـيـر من ∴ ومـا لـك بالذى أسديت فـضل

أعُـزَّاب العـشـيرة لو علـمتم ∴ بحـــالى حين لـى بيت وأهل

علمـتم أنكم فى حـال عـيش ∴ رضىً مـاله يـا قـومُ عَـدْلُ

مراجع الفصل الثانى

١ - كتاب : البيان والتبيين ... الجاحظ حـ ، حـ ٣

٢ - كتاب : الأغـــانــى ... أبو الفرج الأصفهانى

٣ - كتاب : عيـون الأخبار ... ابن قتيبة

٤ - كتاب : صبح الأعشى حـ ٩ ، حـ ١٠ ... القلقشندى

٥ - كتاب : الكامل ... المـبرد

٦ - كتاب : ديوان الحماسة ... أبو تمـام

٧ - كتاب : إحياء علوم الدين ... الغزالى (أبو حامد)

٨ - كتاب : ضحى الإسلام ... أحمد أمين

٩ - كتاب : الفاخر ... أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم

١٠ - مجلة المنهل السعودية ... أعداد ، أغـسطس } ١٩٨٦
أكـتـوبر
نوفـمـبر
يـنـايـر ١٩٨٧

١١ - كتاب : وحى الرسالة ... أحمد حسن الزيات

١٢ - كتاب : ديوان البارودى ... محمود سامى البارودى

خاتمـــة

لعلنا بعد أن طوفنا مع الأسرة العربية من لدن نشأتها الأولى ، أى منذ اللحظة التى صار فيها الرجل والمرأة عروسين محبوبين سعيدين .. إلى أن أنجبا من البنين والبنات ما شاء الله أن ينجبا .. إلى أن غربت حياة أى منهما .. لعلنا نستطيع أن نكون قد وفقنا فى عرض ما للأسرة العربية من أصداء سجلها أدبنا العربى : شعرا ، ونثرا ، وحكمة ، وأقصوصة ، ونادرة فكهة مستملحة فى عمق وشمول . حتى لكأننا نستعرض لا الأسرة العربية مجُسِّدة للأدب العربى ، بل الأسرة العربية مجسِّدة للحضارة العربية فى أنصع صورها وأعمقها ، وأحفلها بالحيوية .. فأينما توجهنا مع الأسرة العربية فى أدبها الذى صور حياتها فلسوف تكون لدينا ثروة فى المعانى الإنسانية والدلالات الأخلاقية التى هى تعبير عن السلوك الإنسانى فى مواقف قوته ونبله ، وفى مواقف ضعفه ويأسه ، وفى مواقف حيرته وتردده ، وفى مواقف ابتهاجه وسروره ، بل ونزقه وطيشه ..

نعم ، ثروة من المعانى الإنسانية والدلالات الأخلاقية .. وإنها لمغنم عظيم كريم .

فهرس عام بالمراجع

* كتاب : التربية عند القابسى ... د/ أحمد فؤاد الأهوانى

* كتاب : الأسرة والمجتمع ... د/ على عبد الواحد وافى

* كتاب : ميادين علم النفس العام ... مجموعة من العلماء الأمريكيين
ترجمة مجموعة من العلماء المصريين

* كتاب : مبادىء علم النفس العام ... د/ يوسف مراد

* كتاب : البيان والتبيين ... الجاحظ

* كتاب : الأغانى ... أبو الفرج الأصفهانى

* كتاب : صبح الأعشى ... القلقشندى

* كتاب : عيون الأخبار ... ابن قتيبة

* كتاب : الكامل ... المبرد

* كتاب : ديوان الحماسة ... أبو تمام

* كتاب : إحياء علوم الدين ... الغزالى (أبو حامد)

* كتاب : ضحى الإسلام ... أحمد أمين

* كتاب : الفاخر ... أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم

* مجلة المنهل السعودية ... أعداد : أغسطس، أكتوبر، نوفمبر ١٩٨٦
يناير ١٩٨٧

* كتاب : وحى الرسالة ... أحمد حسن الزيات

* كتاب : ديوان البارودى ... محمود سامى البارودى

كتب مختارة لزيادة الإطلاع

* صبح الأعشى ... القلقشندى
* الأغـــانـــى ... أبو الفرج الأصفهانى
* الحـــيـــوان ... الجاحظ
* الأمـــالـــى ... أبو على القالى

الفهـرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
رقم الإيداع ١٣٢٠٣ / ١٩٩٧
الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 235 - 927 - 8)

الأدب العربى صورة حية وضاءة للحضارة العربية فى ماضيها وحاضرها . وبهذه الروح فإننا عمدنا إلى اتخاذ منهج له سماته المتميزة فى دراسة هذا الموضوع . وكمبدأ أوّلى أو مبدأ عام فإننا نسير فيه مع مسيرة الأسرة فى حياتها منذ نشأتها الأولى ، أى عند التقاء الرجل والمرأة بالزواج إلى أن تغرب حياتها أو حياة أى من أفراد الأسرة وما يتخلل ذلك من تغيرات وأحوال فى حياتهما ومعيشتهما .

